نصف تذكرة إلى رباط الخير

قصة رحلة... وبداية فقد
احتفظ فيها بنصف تذكرة

معاد قرموع

نصف تذكرة

الحياة ليست مجرد أحداث نعيشها، بل هي الطريقة التي نتذكر بها هذه الأحداث ونرويها

محمد زفزاف

نصف تذكرة

تأليف
معاد قرموع

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى موحى...
الذي لم يكن يملك من الدنيا
سوى نصف تذكرة،
ونصف بيت،
ونصف حضن،
ونصف ابتسامةٍ لا يفهمها أحد.
إلى الطفل الذي كان يجلس قرب نافذة الحافلة
كأنه آخر ناجٍ من كوكبٍ احترق بصمت.
إلى أبيه...
الذي رحل تاركًا خلفه
نصف طريق،
ونصف وصية،
ونصف مقعدٍ باردٍ في حافلة متجهة إلى رباط الخير.
هذه الرواية ليست مُهداة لأحد.
لأن الذين يشبهون موحى
لا تصلهم الإهداءات...
بل تصلهم الأصوات متأخرة،
بعد أن تغادر الحافلة.

الفصل الاول

علبة الغازلين

انطلقت الحافلة تتثاقل في خطوها، تسعل دخاناً أسود كثيفاً كأنها تحتج على رحلة كُتب عليها أن تخوضها كل فجر. كانت تنفض عنها غبار "فاس" العتيقة وأضواءها الشاحبة التي بدأت تذوب في رماد الصباح الباكر، مولية وجهها شطر "صفرو". من نافذتي الزجاجية الباردة التي التصق بها جبيني، كنت أراقب أعمدة الإنارة تبتعد، وكأننا ننسلخ عن حضن المدينة الكبيرة لندخل في جوف المجهول.

كان الطريق في أوله مهاداً؛ شريطاً إسفلتياً مستقيماً ينساب بنعومة، يغوينا بسكينة خادعة وتمايل مريح أسلم بعض الركاب لغفوة متقطعة. لكنها كانت هدنة مؤقتة لا تلبث أن تنكشف. فما إن خلفنا عمران "صفرو" وراءنا، وتوغلنا في العروق الجبلية المؤدية إلى "رباط الخير"، حتى أسقطت الطبيعة قناعها، وأشرعت التضاريس مخالبها الحجرية. بدأ المحرك يئن بصوت مبحوح وموجع، وكأن تروسه تطحن حجارة بدلاً من الديزل. أصبحت المنعرجات الحادة تلقي بأجسادنا النحيلة ذات اليمين وذات الشمال، ولم تكن وعورة الأرض وحدها من استقبلتنا بالعداء في تلك الرحلة المكدودة، بل كانت هناك برودة تسري في الأوصال، وقسوة خفية تطل من وجوه الركاب الصامتين؛ قسوة بشر أنهكهم الفقر تفوق قسوة الجبال نكاية. في أحشاء تلك المركبة المتهالكة، وتحت وطأة ذلك الاهتزاز العنيف، وُلدت حكاية ظلي وصديقي "موحى"، ومعها وُلد ذلك الجرح الغائر الذي أبى، منذ تلك اللحظة، أن يندمل.

بلغنا مدينتنا أخيراً. "رباط الخير"، أو كما يطلق عليها ابناء البلدة "هرممو"، المعلقة بين السماء والأرض. تلك المدينة التي لم تكن صباحاتها لتبدأ بزقزقة العصافير المترفة، ولا برائحة القهوة الطازجة المنسابة من الشرفات كما وصفتها لنا كتب المطالعة المدرسية الملونة. هنا، المدينة تستفيق على مضض، وكأنها تُنتزع من نومها انتزاعاً، على إيقاع فظٍّ لا يعرف الرقة ولا يعترف بالمقدمات.

أول ما يمزق سكون الفجر البارد، هو الوقع الرتيب، الثقيل، وغير المنتظم لحوافر حمار مكدود، يضرب الأسفلت المتشقق بحوافر عارية. يجر خلفه «كرويلة» خشبية تئن عجلاتها المتهالكة تحت ثقل قنينات المنظفات البلاستيكية التي تتخابط مصدرة ضجيجاً مزعجاً. ومن خلف هذا الموكب البائس، ينفذ صوت البائع المبحوح؛ صوت خشن حفرت فيه سجائر “كازا”
الرخيصة وبرد الصباحات أخاديد عميقة، يخترق الجدران الإسمنتية العارية ليوقظ النائمين ويصفعهم بواقعهم:
«جاڤيييل... جاڤيييل... اللي عندو الخبز الكارم، لافيراي!»

كان هذا النداء اليومي يتشابك بفظاظة مع الهدير الثقيل والمتقطع لمحرك شاحنة نفايات البلدية، وتلك الرائحة النفاذة والمميزة للقمامة المتخمرة، التي تظل تتخثر في هواء الزقاق الضيق كغيمة لزجة، كأنها تأبى أن يطردها نسيم الصباح العليل القادم من الجبال.

- رباط الخير (هرممو): هي مدينة مغربية تقع في إقليم صفرو بجهة فاس مكناس. كان اسمها الأصلي "هرممو" (وهي كلمة أمازيغية تعني ابن الدب أو الجرو)، واشتهرت تاريخياً باحتضانها للمدرسة العسكرية التي انطلق منها انقلاب الصخيرات عام 1971، وتغير اسمها لاحقاً إلى "رباط الخير".
- المعلقة بين السماء والأرض: تعبير مجازي يشير إلى الارتفاع الشاهق للمدينة، حيث تقع في منطقة جبلية (جبال الأطلس المتوسط)، مما يجعلها تبدو وكأنها معلقة في الأعالي وسط الضباب والبرد.
- عَلى مَضَض: كُرهاً وعدم رغبة. والمقصود هنا أن المدينة تستيقظ بتثاقل وصعوبة تحت وطأة الحياة القاسية.

وقبل أن تشرع شمس الظهيرة في صبِّ سوط حرارتها على الرؤوس، كان يرتفع إيقاع آخر، أكثر حميمية لكنه لا يقل خشونة؛ صوت احتكاك قوي ومستمر بالأرض. إنها جارتنا «للا زهور». تخرج كل صباح، تلف خصرها بمنديل غليظ، وتقبض بيديها المجعدتين على مكنستها اليدوية المفتولة من أُوراق «الدوم» القاسية. تغمس كفها في سطلها البلاستيكي، وترش حفنات من الماء بحركة نصف دائرية واسعة على التراب المتطاير أمام عتبتها، كأنها بذلك تحاول إطفاء غيظ الغبار وكتم أنفاسه. ثم تبدأ في الكنس بعزم امرأة تعارك الحياة ولا تنتظر منها رحمة.

في تلك اللحظة تحديداً، حين يعانق الماء البارد أديم الأرض الجاف والمحترق، تنبعث تلك الرائحة الساحرة... رائحة الثرى المبلل الصادقة. كان ذلك هو العطر الصباحي الحقيقي لمدينتنا. العطر الوحيد الذي لا يكذب علينا، ولا يتصنع البهجة، بل يخبرنا بوضوح وصرامة أن يوماً جديداً من الكدح والمكابدة قد بدأ، وأن علينا أن ننهض لنأخذ نصيبنا من التعب.

وفي هذا الحي المنسي، حيث تتعانق في أزقته الضيقة الندوبُ والروائح، وحيث لا مكان للضعفاء، برز من بين الزحام "موحى"؛ ظلي الذي لم يكن يفارقني، وسري الذي مشى على قدمين ولم يفهمه أحد سواي.

لم يكن موحى من طينة الأطفال العاديين، أولئك الذين يملؤون الساحات صياحاً وشغباً. كان جسده ضامراً كغصن يابس نُسي في العراء، يتوارى دائما خلف قميص قطني واسع يسبح فيه جسده الصغير كشراع متمزق على سارية نحيلة. وينتهي حفاؤه المستمر عند حدود حذاء بلاستيكي من نوع "حلومة"؛ حذاء كانٍ ربما أزرق أو أسود في يوم من الأيام، لكنه صار الآن باهتاً، مجرحاً، من كثرة ما عارك تراب الدروب وركل حصى الخيبات.

عيناه لم تكونا كعيوننا؛ لا تستقران في وجوه الناس قط. كأن في ملامح البشر، بتجاعيدها وتصنعها، ما يزعجه أو يخدش عزلته. كانت عيناه ترحلان دائماً بعيداً، تغوصان في ملكوت صامت لا نملك نحن مفاتيحه. تراه يقف متصلباً في منتصف الزقاق، ظهره مقوس قليلاً، يتقصى شقوق الجدران الطينية المتهالكة كمن يفك طلاسم لغة قديمة. يطيل النظر في حبة رمل تتحرك، أو يقتفي أثر نملة تكابد لحمل فتات خبز يابس عبر شق صخري، وكأنه يرى في كفاحها انعكاساً لشيء يخصه. وفي أيام الشتاء، كان يرفع رأسه طويلاً، متجاهلاً قطرات المطر التي تصفع وجهه، ليراقب اهتزاز سلك كهربائي وحيد، ويستمع إلى أنينه الخافت وهو يقاوم رياح "الشرقي" الباردة.

لم يكن أهل الحي، المنغمسون حتى أعناقهم في هموم تدبير رغيف العيش ودفع كراء الغرف الضيقة، يأبهون لفك شيفرات ما يسميه الطب الحديث "طيف التوحد". لم تكن هذه المصطلحات المعقمة لتطرق أبواب "رباط الخير" يوماً. هنا، لا وقت للتشخيص النفسي؛ الناس تقيس الأمور بمسطرة البقاء اليومي. لذا، كانوا يختزلون حالة موحى وشروده المستمر بعبارة شعبية قاطعة، يتهامسون بها عند مرور طيفه النحيل، تنضح بشفقة ممزوجة بجهل مريح: «داك الدري لي عقلو كبر منو، ومزنزن شي شوية».
وبسبب هذا التكوين النفسي الفريد، كان موحى يفتقر تماماً لموهبة "المجاملة"؛ تلك الحرفة الاجتماعية التي نرضعها نحن صغاراً لنتقي بها شر الكبار.

كان يأخذ الكلمات بحدها القاطع ومعناها الحرفي المجرد، ويرفض ارتداء الأقنعة. يقذف بأحكامه الصادمة في وجوهنا بلا تردد، يفضح زيف الكلمات التي ألفنا ترديدها، ويُسقط أوراق التوت عن نوايانا المخبأة. هذا الطبع، الممزوج بمرارةٍ يتمٍ باكر حفر أخاديدا في روحه قبل ملامحه، جعل منه فيلسوفاً صغيراً ومزعجاً؛ طفلاً يرى الوجوه عارية على حقيقتها، لا كما يحاول أصحابها تجميلها.

في مجتمع لا يرحم الضعيف ولا يتسامح مع "المختلف"، كان موحى مشروع منبوذ بامتياز، فريسة سهلة لتنمر أطفال الحي وقسوة نظرات البالغين. لولا تلك الحصانة المفاجئة التي مُنحت له من حيث لم يحتسب.. من خلف باب بيتنا الخشبي الثقيل.

كانت أمي تدير شؤون بيتنا المتقشف بصرامة عسكرية. صرامة لم تكن خياراً ترفيهياً، بل درعاً سميكاً تتدرع به امرأة تكابد لستر الفقر والحفاظ على ماء الوجه أمام جيران لا ترحم ألسنتهم. لكن، خلف تلك الملامح الحازمة، ووراء صوتها الآمر الذي يضبط إيقاع يومنا، كانت تخفي قلباً هشاً تذيبه مآسي اليتامى؛ نقطة ضعفها الوحيدة التي لم تستطع، يوماً، أن تواريها بخمار الكبرياء.

لذلك، جعلت أمي من موحى استثناءً نادراً من قوانين الحي الغليظة. بينما كانت الأبواب توصد في وجهه خوفاً من صراحته الجارحة أو نظراته الشاردة، كانت تشرع له باب بيتنا في كل وقت. أذكر رائحة الخبز الساخن والزيتون المهروس حين كانت تجلسه في زاوية مطبخنا، تقتسم له من رغيفنا اليومي نصيباً بصمت، وتضع أمامه كأس الشاي المنعنع دون أن تنتظر منه كلمة شكر.

وحين كانت تلحظ همسات الجارات الفضوليات من وراء النوافذ، ونظراتهن المتوجسة وهن يرمقن هذا الصبي "الغريب" جالساً في عقر دارنا، كانت أمي تقطع دابر النميمة بعبارة حازمة، تهمس بها بصوت يقطر أسى، لكنه يحمل قوة القانون: **«خليه مسكين، يتيم، وعقلو ماشي بحال الدراري.. كيجلس فالقنت ما كيأذي حد»**.

وهكذا، بفعل هذا الحزم الممزوج بالرحمة، وبفعل حاجتي الماسة لوصيف يشاركني عزلتي الطفولية ويحميني من فظاظة الشارع، غدا موحى جزءاً ثابتاً من أثاث بيتنا. يتسلل من الباب بخطوات خفيفة لا تكاد تُسمع، يمضي مباشرة نحو زاويته المفضلة، يطوي ساقيه النحيلتين، ويغوص في صمته المعتاد، ليصبح قطعة لا تتجزأ من روح المكان.

في زاويته الآمنة تلك، لم يكن موحى يطالب بشيء، ولم يكنٍ يتدخل في شجارنا أو لعبنا الصاخب. كان يكتفي بالجلوس صامتاً، لكن يده النحيلة كانت غائصة دائماً في جيب سرواله المهترئ، تقبض بشدة على شيء مخفي في الأعماق. قبضة محكمة، متوترة، كأن تخليه عن ذلك الشيء، ولو للحظة واحدة، سيكلفه تسرب روحه من بين أصابعه.
كان مأخوذاً، حد الهوس، بقدسية علبة "فازلين" بلاستيكية صغيرة. من تلك العلب الرخيصة ذات الغطاء الأزرق الداكن والجسد الشفاف المائل للصفرة، التي كانت بيوتنا تقتنيها على مضض في أواخر الخريف، تحسباً لمواجهة رياح "الشرقي"؛ ذلك الريح الصرصر الذي يزحف من التلال المجاورة، يشرخ وجوه الصغار ويترك تشققاتها قيعاناً تدمي مع كل ابتسامة. لم تكن العلبة في يده مجرد وعاء بلاستيكي رخيص أُفرغ من محتواه، بل كانت صومعته الخاصة، وخزنته التي لا تُقدر بثمن.

أذكر جيداً كيف كابد لتنظيفها أول مرة. مادة "الفازلين" اللزجة تأبى مفارقة البلاستيك بسهولة، وتترك أثراً دهنياً عنيداً يجمع الغبار. لكن موحى تسلح بصبر غريب لا يليق بسنه؛ فرك جوفها بالماء الساخنٍ ومسحوق الغسيل الخشن، كشط زواياها بأظافره الصغيرة مراراً وتكراراً، يغسل ويجفف، حتى زال عنها دسمها الرخيص، وصار جدارها البلاستيكي يشف بوضوح تام عما بداخله. ورغم عملية التطهير القاسية تلك، ظلت رائحة طبية خفيفة ملتصقة بحواف الغطاء الأزرق، تأبى أن تزول.

بعد أن جففها، اتخذها جيباً ثانياً ونهائياً. لم تكن تلك العلبة تحوي نقوداً مسروقة في غفلة من الآباء، أو كرات زجاجيةٍ ملونة "لبِي" نتفاخر بها نحن صبيان الحي. بل احتضنت شيئاً واحداً: نصف تذكرة حافلة زرقاء. تذكرة تآكلت أطرافها من كثرة اللمس، وتلاشت ملامح أرقامها التسلسلية بفعل عرق الأصابع، وصارت تفوح منها رائحة الورق العتيق الممزوجة بعبق "الفازلين" الخفيف.

في إحدى الأمسيات الخريفية الكئيبة، حين انسحبت الشمس تاركة وراءها برودة تسللت عبر ثيابنا الرثة، كنا نفترش الرصيف الإسمنتي الخشن أمام باب بيتنا. برودة الأرض كانت تلسع أفخاذنا النحيفة، والشارع الترابي بدأ يفرغ من المارة، ولم يبق في المشهد سوى طيف عربة "مول جافيل" يبتلعها الظلام المتسلل من أسفل الوادي. في ذلك الصمت المطبق، أخرج موحى علبته البلاستيكية بحذرٍ بالغ، كمن يخرج قلبه ليتفقده.

بإبهامه الصغير المخدوش، دفع حافة الغطاء الأزرق الداكن. انفرجت العلبة عن "طقطقة" بلاستيكية مكتومة، حررت في الهواء البارد ذلك العبق المألوف للورق القديم. سحب نصف التذكرة الزرقاء بأطراف أصابعه، مرر سبابته على حافتها الممزقة بعناية جراح، ثم التفت إليّ. عيناه الواسعتان اللتان لا تستقران عادة، اخترقتا عيني هذه المرة بحدة مربكة. وبصوت خفيض، يرتجف بشجنٍ ناضج لا يتناسب مع حجم جسده، كأنه استعار حنجرة شيخٍ عاش مئة عام، نطق أخيراً:

«شفتي هاد الورقة أ معاد؟ نهار جابني با لهاد المدينة أول مرة، ركبنا في الكار.. با قطع ورقة وحدة لراسو، وجلسني فوق ركابيه باش ما نخلصوش البلاصة ديالي. ملي جا 'الگريسون' كيفرق الوراق على البلايص، عطى للناس كاملين... وملي وصلات النوبة لينا، مديت يدي باش يعطيني ورقتي حتى أنا.. ولكن هو خنزر فيا، زمتني بديك الشوفة، وزاد.. بحالا انا ما كاينش».

صمت موحى قليلاً. ابتلع ريقه الجاف بصعوبة، ولاحظتُ دمعة يتيمة تجمعت في محجره، تعكس ضوء مصباح الشارع الخافت، لكن كبرياءه المبكر زجرها بقوة. عض على شفته السفلى وتابع، وعيناه معلقتان الآن على الحافة المتعرجة للورقة:

«حسيت براسي بحال شي حشرة أ صاحبي.. حسيت باللي أنا ما كاينش فهاد الدنيا، وباللي ما عنديش الحق حتى فورقة بحال الناس. با شافني كنبكي.. سكت، وابتسم ديك الابتسامة الحنينة ديالو، وشد الورقة ديالو، قسمها من النص.. وعطاني هاد النص. قال ليا: 'هاك أ وليدي.. دابا بجوج بينا عندنا بلاصة'».

أعاد موحى كنزه الأزرق الممزق إلى جوف العلبة الشفاف. ضغط على الغطاء الأزرق بإحكام حتى سمعنا تلك الـ "طقطقة" المكتومة مرة أخرى، معلنة انتهاء طقس البوح. أدخل العلبة إلى جيبه، ثم حدق في الفراغ المظلم أمامه، وختم حديثه بكلمات أسقطت عن طفولتنا ورقتها التوتية الأخيرة:

«با مات.. وما بقى عندي من ريحتو ومن ديك الرحلة كاملة غير هاد نص ورقة. هادي ماشي تذكرة أ معاد، هادي هي حياتنا. الدنيا كتعاملنا بحال داك الگريسون، كتعطي للناس كلشي، وحنا كتنقزنا. ولكن هاد الورقة كاتفكرني باللي، وخا نشدو غير النص من هاد الدنيا، خصنا نشدو فيه بيدينا وسنانا».

لم أكن أدرك في تلك الأمسية الباردة، وأنا أستمع لهذا التشريح القاسي لواقعنا، أن "فلسفة النصف" هذه ستكون هي المنظار الذي سنبصر به العالم بأسره. وتحديداً، لم أكن أعلم أنها ستكون التفسير الوحيد لما سيحدث في ذلك الصباح المشهود، حين فُتحت أبواب "الغرفة المحرمة" في بيتنا.

في بيتنا، كما في كل بيوت "رباط الخير" التي تكابد لستر فقرها، كانت الجغرافيا مقسمة بصرامة تضاهي قسوة المنعرجات الجبلية التي قطعناها. كانت هناك مساحات يومية نتحرك في فيافيها بحرية، نأكل فيها وننام ونريق على أرضيتها الإسمنتية شاي الصباح؛ وغرفة واحدة تظلُّ طوال العام محرماً مقدساً، بابها الخشبي الثقيل موصد دائماً: «الصالون».

لم يكن الصالون مكاناً للجلوس أو الاستراحة بعد يوم متعب، بل كان مزاراً صامتاً يحرم علينا حتى الاقتراب من عتبته. من شق الباب السفلي، كانت تتسرب رائحة "الخزامى" وحبات الكافور، رائحة معقمة وباردة تناقض تماماً رائحة البصل والزيت المحروق التي تعبق بها بقية الدار. في الداخل، كانت «السدادر» الخشبية توارى خلف ملاءات بيضاء سميكة تُشبه الأكفان، شُدت بإحكام لحمايتها من دنس الغبار الطائش. أما الزربية، فكانت ملفوفة على نفسها كسرٍ غامض، مقيدة بحبال رقيقة، بينما تُترك النوافذ مغلقةٍ لتخيم عتمة مهيبة على الأرجاء، كأنَّ الزمن قد قرر التوقف تماماً عند تلك العتبة.

ولكن، في ذلك الصباح الخريفي المشهود، انكسر وقار البيت فجأة.نادت أمي بصوتٍ حاد، يرتجف بتوتر يعلن حالة الاستنفار القصوى، كأنَّ غارة جوية على الأبواب. كانت تركض بين الفناء والمطبخ، وتصيح في وجوهنا: **«نوضو قادو الحالة.. الضياف جايين من الدار البيضا!».** "الدار البيضاء".. اسم كان يقع على مسامعنا كأنه قادم من كوكب آخر، يحمل معه سطوة المركز وثقل العاصمة الاقتصادية التي تجعل أمي ترتبك وتستنفر كل طاقاتها لتلميع واجهة فقرنا.

بلمح البصر، انقشعت الملاءات البيضاء عن "السدادر" لتكشف، بشبه سحر، عن فخامة مخفية: ثوب مخملي أحمر لامع، تتخلله خيوط ذهبية تعكس ضوء الصباح الذي اقتحم الغرفة بعد فتح النوافذ. بُسطت الزربية في خيلاء، لتغطي الأرضية الإسمنتية الباردة بألوانها الدافئة، واستقرت صينية الشاي الفضية الثقيلة ـ تلك التي لا نكحل أعيننا ببريقها إلا في العيدين ـ في قلب

المكان، تحفُّ بها كؤوس زجاجية مذهبة الحواف، وأطباق خزفية طفحت بحلوى "كعب الغزال" و"الغريبة" التي شُتريت خصيصاً للمناسبة.

وقفتُ وموحى عند العتبة، نرقب هذا التحول المذهل بذهول الصغار. اتسعت عينا موحى وهو يمسح بنظراته هذا البذخ المفاجئ. أهذا حقاً هو بيتنا؟ أهذا هو المكان الذي نقتسم فيه نصف رغيف وغموس زيت كل مساء؟

وحين وصل الضيوف، بحقائبهم الجلدية وعطورهم النفاذة التي ابتلعت رائحة الخزامى، حُشرنا نحن في الزاوية الضيقة والمظلمة المقابلة لمدخل الصالون؛ أيدينا مكتوفة وراء ظهورنا كأسرى حرب، وعيوننا شاخصة بفضول وجوع نحو صحن الحلوى البعيد. وكلما تحركت يدي بعفوية طفولية، محاولاً التقدم خطوة لاختلاس نظرة أو قطعة حلوى، كانت أمي ترشقني من بعيد بنظرة تخترق الضلوع؛ نظرة سريعة ترتسم في نصفها الأعلى بسمة عسلية وترحاب مبالغ فيه للضيوف، بينما تتوعدني عيناها في باطنها بالويل والثبور إن تجرأت وتجاوزت حدود الزاوية.

موحى، الجالس القرفصاء بجانبي، بعقله الذي يرفض أقنعة المجاملة، لم يكن ينظر إلى الحلوى، بل كان يراقب المشهد برمته بعدسة الفيلسوف الصغير. أدخل يده ببطء في جيبه المهترئ. في وسط ضجيج الترحيب ورنين الملاعق الفضية في كؤوس الشاي، سمعتُ تلك الـ «طقطقة» البلاستيكية المكتومة والمألوفة لعلبة الفازلين.

تحسس نصف تذكرته الزرقاء بأطراف أصابعه، ثم مال نحوي، وهمس بكلماتٍ قطرت مرارة، وعيناه لا تفارقان الضيف الغريب الذي كان يرتشف الشاي بترف ويضحك بصوت عالٍ:

«شفتي أ معاد.. حنا فهاد الدار بحالنا بحال هاد النص ديال الورقة المقطوعة. حنا ماشي موالين الدار، حنا غير 'عساسة' ديال هاد الاثاث. كنجريو ونمسحو الغبرا باش يجي واحد من كازا، يجلس فالصالون، ياكل الحلوى، ويمشي.. ونرجعو حنا نغطيو الصالون بالكفن لبيض، ونكملو حياتنا فالبيوت المظلمين لوخرين. حنا، أ صاحبي، عندنا غير 'نص بلاصة' حتى فديورنا».

في تلك اللحظة، وسط عبق الشاي المنعنع المنعش، ورائحة عطر الضيوف الغريبة، وتحت وطأة نظرات أمي الصارمة، أدركتُ القوة الكامنة في تذكرة موحى الممزقة. أدركت قوة ذلك الصديق «المختلف» الذي سلبوه كل شيء، فامتلك الحقيقة. لقد علمنا اليتم وعقله الفريد كيف نبصر الأشياء عارية من ثياب الزينة، وكيف نرى الفقر المخبأ تحت المخمل الأحمر، وكيف نبتسم في صمتٍ مطبق في زوايانا الضيقة.. لكي لا تنفجر مآقينا بالبكاء.

الفصل الثاني

لعنة "لشْفَاق".. ورنين الدرهم الأول

لم يكن موحى على ما يرام ذلك الصباح. لم تستهوه طقوسه المعتادة؛ لم يقف أمام الجدار الطيني ليتقصى شقوقه، ولم يرفع رأسه ليراقب سلك الكهرباء اليتيم. وجدته منزوياً في أضيق زاوية من زقاقنا الترابي، يضم ركبتيه النحيلتين إلى صدره بقوة كمن يحاول لملمة أطرافه من التناثر. كان يهتز بجذعه الضامر إلى الأمام والخلف في حركة إيقاعية متوترة، سريعة، ومحمومة. ظهره الصغير يرتطم بالجدار الإسمنتي البارد فيصدر صوتاً خافتاً ومكتوماً، بينما شفتاه المبيضتان تتمتمان بعبارات مبهمة، لم أتبين منها سوى حروف متقطعة تشبه حشرجة الغرقى. عيناه الواسعتان اللتان كانتا تسبحان في ملكوت الغيب، بدتا اليوم غائمتين، محملتين برعب صامت ومادي لا يفهمه سواه.
عرفتُ لاحقاً، من همسات الكبار، أن السبب هو أمه.
لم تكن أم موحى امرأة تختفي عن الأنظار ترفاً، بل كانت "آلة" بشرية طحنها الشقاء حتى محا ملامح أنوثتها وتفاصيل وجهها. كانت تغادر الحي قبل أن يتبين الخيط الأبيض من الأسود، تلتحف جلباباً صوفياً خشناً لا يقي من برد الصباح الذي يكسر العظام. تمضي بخطوات مسرعة في العتمة لتحشر جسدها المنهك في حافلة "مرسيدس 207" مهترئة، تلك الناقلة الصدئة التي يصر أبناء البلدة على تسميتها بـ "الرونو". هناك، وسط رائحة العرق البارد والديزل المحترق، تُكدس مع عشرات النساء الأخريات، متجهات نحو "الفيرمة" (الضيعات الفلاحية) في ضواحي المدينة.

تقضي نهارها محنية الظهر حتى تكاد جبهتها تلامس التراب المبلل، تقلع البطاطس بأصابع متيبسة، أو تجمع البصل تحت شمس خريفية لا ترحم. وحين يميل النهار للغروب، وتعود نساء الحقول لغسل أقدامهن المتورمة، لا تعود هي لترتاح. كانت تجر قدميها الثقيلتين نحو إحدى المدارس الخصوصية في وسط المدينة، لتبدأ نوبة شقاء جديدة: "الميناج". تنحني مجدداً، لتمسح بلاطاً فاخراً يلمع تحت أحذية أبناء الميسورين، وتستنشق رائحة المعقمات الكيميائية التي تحرق الصدر، بينما ابنها الوحيد يغوص في وحل أزقة "رباط الخير".

وفي الليلة التي سبقت ذلك الصباح الكئيب، توقفت الآلة عن العمل. سقطت الأم مغشياً عليها بمجرد ولوجها عتبة بيتهم المتآكل. أسقطها التعب، الجوع، وحمى مستعرة أكلت ما تبقى من لحم جسدها النحيل، وتركتها تئن على حصير بلاستيكي رقيق. ولأنها كانت صامتة دائماً، تركض خلف لقمة العيش لاهثة، ولا تملك ترف الجلوس على العتبات لتبادل النميمة واحتساء الشاي مع نساء الحي، فقد حُكم عليها بقسوة لا نظير لها. في مجتمعنا، الصمت يُفسر تكبراً، والانعزال يُترجم ريبة. كانت جاراتنا، وحتى أمي التي طالما عطفت على موحى وشرّعت له بابنا، يتهامسن في جلساتهن المسائية، ينسجن حول مأساتها قصصاً تبرر عجزهن عن المساعدة:

«ديك المْرا ماشي طبيعية أختي.. ضربها شي جن، من نهار مات راجلها وهي ماشي حتا لتما.. راه هي اللي سحرات لولدها بيديها حتى ولى مزنزن ومكيشوفش فوجوه الناس!»

لم يغفر لها المجتمع حزنها وانطفاءها. لم يغفروا صدمتها المزدوجة: الترمل المبكر الذي كسر ظهرها، ومرض ابنها الذي لم تفهم طبيعته يوماً. بدلاً من احتضان جرحها، جعلوا من انطوائها سحراً أسود، ومن شقائها وصمتها لعنة.

اقتربتُ من موحى في زاويته. جلستُ بجانبه على التراب البارد، محاولاً إيقاف اهتزازه المستمر. مددت يدي ووضعتها على كتفه، فانتفض كطائر جريح، ثم أمسك بكفي فجأة. كانت أصابعه باردة كالثلج، ترتجف بعنف. التفت إليّ، وبصوت مشروخ، أجش، لا يتناسب أبداً مع طفولته المهدورة، نطق بكلمات سقطت على روحي كصخرة ثقيلة:

«أ مُعاد.. مي غاتموت. هاد المدينة كتاكل الناس. خاصنا نرجعو لـ 'صفرو'.. تما كلشي غايرجع مزيان، تما أنا كنت دري عادي..»

«تما أنا كنت دري عادي...» ترددت هذه الجملة في أذني كصدى جرس كنيسة مهجورة. كانت 'صفرو' في عقل موحى، وفي نبرته المرتجفة، ليست مجرد نقطة جغرافية مجاورة على الخريطة. بل كانت الجنة التي طُرد منها بقسوة؛ الفردوس المفقود الذي سُلب منه دفعة واحدة.

بصوتٍ متقطع، وعينين شاخصتين نحو فراغ الزقاق وكأنه يعرض شريطاً سينمائياً على جداره الإسمنتي، حكى لي كيف كانت تفاصيل أيامهم هناك. كان والده رجلاً 'مستوراً'، عريض المنكبين، يخرج مع تباشير الصباح الأولى، ويكسب قوت يومه بعرق جبينه ليقيهم ذل السؤال ومرارة الحاجة. كانوا يعيشون في بيت كراء صغير، غرفه ضيقة، لكنه دافئ. بيتٌ تملؤه كل صباح رائحة الخبز الطازج المخبوز على نار هادئة، وصوت التلفاز القديم الذي يضبط إيقاع حياتهم الآمنة، وضحكات أبٍ يمسح بيده الخشنة على رأس ابنه الوحيد.

في ظل تلك 'السترة' الاجتماعية، وتحت سقف ذلك الروتين الآمن، كان 'طيف التوحد' الذي يسكن موحى نائماً، ومستتراً خلف حنان العائلة ووقار الأب. كان موحى يمارس طقوسه الغريبة؛ يرتب ألعابه البسيطة بنسق هندسي صارم لا يقبل الخلل، يتجنب النظر في عيون الزوار، ويصمت لساعات طوال. لكن، لأن الأب كان حاضراً، ولأن مائدة الطعام لم تكن تشتكي فراغاً، كان الجيران والأهل يغضون الطرف. كانوا يبتسمون بود زائف ويبررون اختلافه قائلين: **«دري حشومي، وراسي مكيبغيش الصداع».** كانت 'السترة' المادية توفر له حماية نفسية، وكان والده هو الجدار المنيع الذي يصد عنه تنمر العالم ونظراته الجارحة.

لكن، الموت في دوائر الفقراء لا يطرق الباب بأدب، بل يقتحمه كعاصفة عمياء. بمجرد وفاة الأب المفاجئة، انهار الجدار. طُردت العائلة الصغيرة من جنتها في 'صفرو' نحو المجهول، فقذفت بهم الأقدار إلى هوامش 'رباط الخير'، حيث الكراء بخس.

هناك، في عراء الترمل واليتم، التهم الفقر ما تبقى من 'سترة' موحى. انقشعت غشاوة المجاملة عن عيون الناس، وعرّى العوز اختلافه بفظاظة. لم يعد ترتيبه للأشياء "هدوءاً"، بل صار "حمقاً". ولم يعد صمته "خجلاً"، بل غدا "عقداً" وسحراً. الفقر حوّله في نظر الشارع من 'طفل مميز' إلى 'دري مزنزن'، وجعل من أمه الصابرة 'امرأة ملعونة'.

سحبني موحى من شرودي وهو يدخل يده المرتجفة إلى جيب سرواله الداخلي. أخرج علبة الفازلين البلاستيكية ذات الغطاء الأزرق الداكن. نظر إلى جسدها الشفاف الذي يشف عن نصف التذكرة الممزقة والرابضة في القاع كشاهد قبر منسي.

مرر إبهامه على الغطاء الأزرق، لكنه لم يفتحه هذه المرة. قبض على العلبة بكفه الصغيرة حتى ابيضت مفاصل أصابعه، واقترب مني أكثر حتى شممت رائحة التراب العالق بقميصه. التمعت في عينيه الغائمتين شرارة تصميم مخيفة، وهمس بنبرة لم تعد طفولية البتة:

«إلى شدينا الكار لصفرو أ معاد، مي غاتبرا وتوقف على رجليها.. وبا غايفرح بينا حيت رجعنا لدارنا.. وأنا... أنا مغانبقاش هبيل ومزنزن فهاد الزنقة. خاصنا نعمرو هاد الطاسة بالفلوس. خصنا نشريو ورقة كاملة.. ورقة ديال بصح، ماشي نص ورقة!»

لم يكن هناك وقت نضيعه في البكاء أو الشكوى. تركنا أم موحى تتصارع مع حماها خلف الباب المتهالك، وتسللنا خارج الحي بخطوات حثيثة. توجهنا صوب أطراف المدينة، متجاوزين آخر البيوت الإسمنتية العشوائية، نحو وجهة لا يقصدها في هذا الوقت الباكر سوى الكلاب الضالة، الطيور الجارحة، والمنبوذين الذين لفظتهم جيوب المدينة: مكب النفايات العظيم، أو كما يطلق عليه أهل المنطقة بخليط من القرف والرهبة.. "المزبالة دلشْفَاق".

كان المكب، من بعيد، يبدو كوحش خرافي يربض في الخلاء، يتنفس بخفوت ويتربص بالقادمين. جبال متراكمة من القمامة تحترق ببطء في أحشائها، تنفث دخاناً أزرق مائلاً للسواد، يزحف على الأرض كثعبان لزج ليخنق الأنفاس. كلما اقتربنا، كانت الرائحة تشتد وتصبح أكثر كثافة؛ خليط مقزز من عفن الخضروات المتخمرة، حلاوة الدم الفاسد، ورائحة البلاستيك المذاب التي تلتصق بسقف الحلق وتأبى أن تزول. الجغرافيا هنا لا تعرف الرحمة، والأرض رخوة، تغوص فيها الأقدام وسط أكوام من الأكياس الممزقة وبقايا حياة استغنى عنها الآخرون.

لكن موحى، بعقله الذى تعود على تفكيك الفوضى العارمة إلى أشكال هندسية صارمة، لم يكن يرى القذارة كما أراها. كان يسير بخطى ثابتة، لا يضع يده على أنفه ليتقي الرائحة، ولا يلتفت لنباح الكلاب الجائعة التي تنبش في الجوار. كان يبحث عن الخلاص وسط الخراب. انغمس فجأة في تلة من الخردة الصدئة بتركيز مخيف، كغواص يبحث عن لؤلؤة في قاع موحل.

لم يأبه لقطع الزجاج المكسور التي كانت تهدد حذاءه البلاستيكي المتهالك، ولا لأسراب الذباب الكبير الذي بدأ يتجمع حول وجهه المبلل بعرق بارد.
كان يقلب القطع المعدنية، يرمي بالصفيح الخفيف جانباً، ويدقق في الأسلاك. فجأة، جثا على ركبتيه فوق طبقة من الرماد الأسود اللزج. اتسعت حدقتاه ولمعت عيناه، وشرع يسحب بقوة هيكل محرك كهربائي قديم ومحطم، نصفه مدفون تحت الأنقاض. لقد وجد مبتغاه: لفيفة سميكة من أسلاك النحاس الأحمر. في عرف "المزبالة"، النحاس ليس مجرد معدن، بل هو العملة الصعبة، الذهب الخالص الذي سيدفع فيه بائع الخردة دراهم معدنية رنانة.
أدخل موحى أصابعه النحيلة والمليئة بالخدوش القديمة بين شقوق المحرك الصدئ. حاول تخليص السلك المتشابك بقوة. كان السلك النحاسي عارياً، قديماً، وحاداً كشفرة حلاقة "زيزوار". ومع تصميمه الأعمى على انتزاعه دفعة واحدة، وفي حركة سريعة وخشنة، انغرس طرف السلك المعدني المدبب عميقاً في سبابته الصغيرة.
سمعتُ صوت تمزقٍ اللحم الرقيق. انشق الجلد، وتدفق الدم الأحمر القاني ساخناً، ليسيل على المعصم ويختلط فوراً بسواد الرماد وزيوت المحرك التي تغطي يديه.
صرختُ فزعاً، وقد شل الرعب أطرافي وأنا أرى دمه يقطر على النفايات: «**موحى! يدك كتقطر بالدم.. طلق داكشي أ صاحبي! راك غاتموت !**»
لكنه لم يصرخ. لم يصدر عنه حتى أنين خافت. ولم يلتفت إليّ. ظل جاثياً على ركبتيه، ينظر إلى فوهة الجرح وإلى الدم الذي يغسل السلك النحاسي ببرود جليدي، وكأنه يراقب يداً لا تخصه.
ثم، وبحركة جعلت قشعريرة تسري في عمودي الفقري، قبض على السلك بيده المجروحة نفسها، وواصل الشد بشراسة أكبر.

كان يعتصر الألم ليحوله إلى قوةٍ، يقتلع النحاس وكأنه يقتلع روحه من بين براثن الموت، متمتماً بصوتٍ يشبه الفحيح من بين أسنانه المطبقة:

«على قبل صفرو.. على قبل مي.. على قبل الورقة الكبيرة..»

انقطع السلك أخيراً، وارتد موحى إلى الخلف حاملاً غنيمته النحاسية الملطخة بدمه. نهض واقفاً، يلهث بقوة، وصدره النحيل يعلو ويهبط، لكن عينيه كانتا تلمعان بانتصار وحشي، انتصار طفل قهر وحش المزبلة لينتزع منه أول دراهم الخلاص.

بقميص ملطخ بخطوط الدم القاني ورماد النفايات اللزج، وبأنفاس تتقطع في صدرينا الصغيرين كمنفاخ حداد مكسور، غادرنا جحيم "لشْفَاق". ركضنا عائدين نحو أزقة المدينة، لا نلتفت وراءنا. كانت يد موحى تنزف ببطء، وقطرات الدم ترسم خلفنا مساراً متقطعاً على التراب الجاف، لكنه كان يقبض على لفة النحاس بيده السليمة وكأنها طفل وليد يخشى عليه من السقوط.

كان من النادر جداً أن نصادف "مول الجافيل" (بائع الخردة والمنظفات) في فترة ما بعد الزوال؛ فقد اعتاد أن يطوي يومه مبكراً ليريح حماره المكدود. لكن، لحسن حظنا، وبينما كنا نقطع الطريق الفاصلة بين حي "السهب اليازغي" وحي "البرج"، لمحناه من بعيد. كان عائداً يجر عربته الخشبية المتهالكة ببطء شديد نحو منزله في حي "السهب اليازغي"، وعجلاتها تصدر أزيزاً حاداً يخدش سكون المساء.

وقفنا أمام عربته نلهث، وصدورنا تعلو وتهبط بعنف. رائحة "الجافيل" (المُبيّض) النفاذة التي تنبعث من براميله البلاستيكية غسلت رئتينا من عفن المزبلة. نظر إلينا العجوز بعينين غائرتين لا تعكسان أي دهشة.

أخذ العجوز لفة النحاس الأحمر من يد موحى المرتجفة. لم يعلق على الدم الذي لطخ أطراف الأسلاك. قلبها بين كفيه الخشنتين والمشققتين بفعل المواد الكيميائية، وزنها بلامبالاة تامة بحركة خبيرة من يده، ثم دسها في كيس خيش أسود معلق بجانب العربة. أدخل يده إلى جيب جلبابه الصوفي العميق، وأخرج درٍاهم معدنية. وبحركة جافة، رمى في كف موحى المجروحة ـ تماما كما في الصورة التي قد ترتسم في ذهنك ليد صغيرة تحمل قروشاً معدنية ـ قطعتين نقديتين من فئة درهم واحد. لمع المعدن الفضي الباهت وسط تجاعيد الكف المليئة بالوحل والدم، وكان ملمسه بارداً يتناقض مع حرارة الجرح النابض.

لم ينطق موحى بكلمة. أطبق أصابعه على الدرهمين، واستدار مبتعداً.

مشينا حتى بلغنا زاوية زقاقنا الفارغ، حيث تتساقط ظلال الجدران الطينية معلنة اقتراب المغيب. هناك، أسند موحى ظهره إلى الحائط، ومسح دمه النازف بلامبالاة بطرف بنطاله القديم. ثم، بحركة طقوسية مهيبة، أخرج علبة الفازلين البلاستيكية ببطء شديد من جيبه السري.

بإبهامه الذي لا يزال يحمل أثر الرماد، دفع الغطاء الأزرق الداكن. انفرجت العلبة. نظر طويلاً إلى نصف التذكرة الممزقة القابعة في القاع كشاهد قبر يلفه النسيان، ثم رفع يده الأخرى، وأفلت الدرهم الأول.

"طَقْ..."

كان صوت ارتطام المعدن بقعر العلبة البلاستيكية جافاً، مكتوماً، وخالياً من أي رنين فخم أو صدى موسيقي. لم يكن يشبه رنين الذهب في أفلام القراصنة، بل كان صوتاً مخنوقاً كتمت جدران البلاستيك الشفافة مداه. لكنه، ورغم خفوته، تردد في عقولنا الغضة كأولى قطرات الغيث الثقيلة التي تضرب أرضاً مشققة بعد صلاة استسقاء طويلة.

أتبعه بالدرهم الثاني. "طشْ..." اصطدم المعدن بالمعدن فوق الورقة الزرقاء، محدثاً صليلاً خافتاً استقر بعدها في القاع.
لأول مرة منذ أيام طويلة، بل ربما منذ وفاة والده، رأيت شبح ابتسامة حقيقية يرتسم على شفتي موحى المتشققتين. لم تكن ابتسامة واسعة، بل مجرد انفراجة خفيفة أضاءت وجهه الشاحب. نظر إليّ، وعيناه اللتان كانتا غائمتين في الصباح، صارتا الآن تلتمعان ببريق حاد ومركز لم أعهده فيه من قبل. همس لي، وصوته يقطر يقيناً:
«بدينا أ مُعاد.. غانشريو الورقة الكبيرة ديال الكار.. وغانعتقو مي.»
في تلك اللحظة، وتحت سماء "رباط الخير" التي بدأت تكتسي بزرقة الليل الكئيبة، وأنا أنظر إلى قطرات الدم الجافة على قميص صديقي، أدركت أمراً مرعباً. أدركت أن هذه "الخشخشة" المكتومة داخل علبة بلاستيكية رخيصة، كانت كافية لتغرس في قلبينا المنهكين شيئاً خطيراً جداً، شيئاً لم نكن نملك ترف الإحساس به من قبل.. شيئاً يُدعى: الأمل.

الفصل الثالث

مسمنة" مدهوسة

"خْش... خْش..." كان صوت الاحتكاك الخشن لمكنسة "الدوم" يخدش إسفلت الزقاق البارد، يمزق صمت الفجر الكئيب في حيّنا كسكين غير مسنونة. كانت جارتنا "للا زهور" تكنس عتبتها الترابية؛ تلك العادة الموروثة والصارمة التي لا تتخلف عنها صيفاً أو شتاءً، ولا تعترف بعطلة أو مرض. قديماً، كان هذا الإيقاع الرتيب هو ما يخبرنا، ونحن دفيئون تحت أغطيتنا الصوفية الثقيلة، أن الصباح قد تنفس وأن الحياة بدأت تدب في العروق.
لكن صباحنا هذا، لم يكن يحمل نسيم الفجر المعتاد، بل كان مخنوقاً، ثقيلاً، ومعبأً برائحة المرض.
في الغرفة المجاورة لغرفتنا، والتي تفصلنا عنها جدران طينية رقيقة لا تكتم سراً، كان وضع أم موحى قد انحدر نحو منحدر خطير. طوال الليل، لم يغمض لنا جفن. كانت الحمى تنهش جسدها المتهالك ككلب مسعور، تتصاعد حرارتها حتى نكاد نشعر بلفحها عبر الجدار. كان سعالها الجاف، المبحوح، يتردد في صمت الليل كصدى حجر يسقط في بئر مهجورة وعميقة، يتبعه أنين خافت، متقطع، لامرأة استنزفتها الحقول والسلالم الرخامية، واستسلمت أخيراً لقدرها. في ذلك الصباح، لم تعد قادرة حتى على فتح عينيها لترد على نداءات موحى المذعورة.
لم أحتمل بقائي حبيس تلك الجدران المعبأة برائحة العرق البارد والخوف. تسللتُ خارج البيت بخطوات مثقلة، أبحث عن منفذ لأستنشق بعض الهواء البارد النقي. بمجرد أن تجاوزت العتبة ولفحني هواء نونبر اللاسع، اصطدمت بشبح مألوف يقف متصلباً عند ناصية الزقاق.
كان "مول جافيل".

بدا العجوز في ضوء الصباح الرمادي مختلفاً تماماً. وجهه المجعد، الذي حفرت فيه شمس "رباط الخير" أخاديد عميقة، بدا أكثر إرهاقاً وشحوباً تحت الضوء الأصفر المريض للمصباح المعلق في سطح أحد المنازل. ذلك المصباح اليتيم الذي كان لا يزال منيراً، يغالب بقايا عتمة الفجر بشراسة قبل أن ينطفئ كعادته، آلياً، في السابعة صباحاً. كانت عينا العجوز غائرتين في محجريهما، محاطتين بهالات سوداء داكنة كأنه لم يذق طعم النوم لأيام.

هذه المرة، لم يكن يجر عربته الخشبية المتهالكة، ولم يكن ينادي بصوته المبحوح المعتاد. كان يقف وحيداً، صامتاً، كشجرة يابسة نبتت بالخطأ في الإسفلت.

حين لمحني، تقدم نحوي بخطوات مترددة، ثقيلة. لم يلقِ التحية. اقترب مني حتى شممت رائحة التبغ الرخيص المختلطة بعبق المُبيّض العالق بثيابه، ثم مد يده الخشنة، ودس في يدي الصغيرة والباردة قطعتين نقديتين من فئة درهم واحد.

نظرت إليه باستغراب، لكنه لم يترك لي مجالاً للسؤال. قال بصوت متهدج، يملؤه ندم غريب لا يتناسب مع قسوة ملامحه: **"ستاغليت داك الدري البارح.. عطيتو قل من حقو فداك النحاس. هاك، درهم ليك، ودرهم عطيها لداك الدري.. وطلبو الله يغفر ليا، راه حتى أنا عندي وليدات."**

استدار العجوز ببطء، وابتلعته عتمة الزقاق المتبقية، تاركاً إياي مسمراً في مكاني، والدرهمان يحرقان كفي ببرودتهما المعدنية.

لم أفكر مرتين. ركضتُ عائداً إلى الداخل، متجاوزاً "الحوش" بخطوات سريعة. فتحت باب غرفتهم الموارب. كان موحى يجلس القرفصاء بجوار رأس أمه المسجاة على الحصير، يراقب أنفاسها المتقطعة وحركة صدرها البطيئة برعب صامت، كأنه يخشى أن تتوقف إن هو أشاح بنظره عنها.

اقتربت منه بصمت. لم أقسم المبلغ كما طلب مني العجوز. في قانون صداقتنا، وفي حضرة هذا اليتم الزاحف، لم يكن للقسمة مكان. أمسكت بكفه الصغيرة والباردة، فتحت أصابعه المتخشبة، ووضعت الدرهمين معاً في باطن يده.
نظر إليّ بعينين محمرتين من قلة النوم. لم يسأل من أين أتيت بهما. أدخل يده إلى جيب سرواله الداخلي، وأخرج علبة الفازلين ببطء طقوسي اعتدناه. فتح الغطاء الأزرق، وأسقط الدرهمين الجديدين فوق الدرهمين السابقين ونصف التذكرة الزرقاء.
"طَق... طَق..."
أصبحت العلبة البلاستيكية الآن تحتوي على أربعة دراهم كاملة. الخشخشة المكتومة داخل الجوف البلاستيكي زادت حدة، وتغير إيقاعها. لم يعد مجرد رنين خافت، بل صار صوتاً له وزن. في تلك اللحظة، رأيت في عيني موحى كيف تحول ثقل تلك العلبة في جيبه، من مجرد قطع معدنية، إلى وزن حياة أمه بأكملها.
تركنا أنفاس الأم المتقطعة خلفنا، ومشينا في طريقنا المعتاد نحو المدرسة. كان هواء نونبر الصباحي يلسع الوجوه، يتسلل من ياقات قمصاننا المهترئة ليجمد الدم في العروق. خطواتنا كانت ثقيلة، نجر أقدامنا جراً على الإسفلت

المتشقق، بينما كانت يد موحى لا تفارق جيبه الأيمن، يقبض على علبة الفازلين بدراهمها الأربعة، كمن يقبض على قلبه كي لا يسقط.
في منتصف الطريق، مررنا بمحاذاة "عين الغيس"؛ ذلك الحقل الترابي الواسع والمنخفض، المليء بالحفر وبرك الوحل، والذي كنا نتخذه ملعباً نركض فيه خلف كرة بلاستيكية ممزقة حتى تدمى أصابع أقدامنا العارية.

عادةً، وفي كل صباح، كان موحى يتوقف عند حافة ذلك الحقل لدقائق. كان ينسى العالم، ويشخص ببصره نحو الحجرين اللذين نضعهما كمرمى. هناك، كان طيف التوحد يمنحه قدرة خارقة ومدهشة؛ كان يحلل بعقله الهندسي العجيب المسافة، ويخبرني بدقة رياضية صارمة عن زوايا انحراف الكرة، وكيف ستؤثر رياح "الشرقي" على مسارها المنحنى. كان يفكك فوضى اللعب إلى أرقام وأشكال هندسية تريحه وتمنحه السيطرة على عالم لا يفهمه. لكن اليوم، مر موحى بجانب "عين الغيس" وكأنه يمر بجانب مقبرة.

نظرتُ إليٍ وجهه الجانبي؛ كان ينظر إلى الحقل الموحل ولكنه لا يرى شيئاً. عيناه اللتان كانتا تلتمعان ببريق الحسابات الدقيقة، انطفأتا تماماً وغلفتهما غشاوة رمادية. الخوف المادي من اليتم القادم شلّ دماغه وأخرس أرقامه. لم يعد هناك مكان للزوايا الهندسية ولا لسرعة الرياح في رأسه الصغير. كان هناك فقط رعب أسود يتمدد، وعلبة بلاستيكية يشد عليها داخل جيبه كمن يقبض على جمرة من نار. لقد ابتلعت مأساة أمه كل قواه الخارقة، وأعادته مجرد طفل هش، يرتعد من البرد والفقد.

وصلنا إلى المدرسة وابتلعنا بابها الحديدي الصدئ. دخلنا القسم، فاستقبلنا ذلك الهواء الثقيل المشبع برائحة الطباشير المتناثر، ورطوبة الجدران التي تقشر طلاؤها الأخضر الباهت كجلد ميت. اتجهنا بصمت نحو مقعدنا الخشبي المعتاد في الصف الأخير؛ ملاذنا الذي يقينا من نظرات المعلمين المباشرة.

أمامنا مباشرة، كانت تجلس "زينب".

كانت زينب فتاة صغيرة، ترتدي وزرة مدرسية باهتة اللون من كثرة الغسيل، لكنها نظيفة جداً، وتفوح منها رائحة صابون "الطاووس" العتيق. شعرها الرطب كان منسدلاً بنعومة على كتفيها، ومضفراً بعناية أمٍ محبة. في ذلك القسم القاسي، المليء بأبناء الفقراء الذين كستهم الشوارع بخشونتها، كانت زينب هي الاستثناء الوحيد. كانت تمتلك عينين واسعتين تفيضان برحمة

مبكرة، وابتسامة خجولة تذيب جليد الخوف، وصوتاً خفيضاً لا يكاد يُسمع، يشبه نسيم الفجر.
بمجرد أن جلسنا، لاحظت زينب ارتعاش جسد موحى، وشحوب وجهه الذي غاب عنه الدم تماماً، وكأن الحياة سُحبت من عروقه.
التفتت إلينا خلسة،
تراقب الباب بحذر خوفاً من دخول المعلم، ثم وبابتسامتها الدافئة التي أذابت قليلاً من صقيع ذلك الصباح الكئيب، مدت يدها الصغيرة من تحت الطاولة الخشبية.
كانت تحمل شيئاً ملفوفاً بعناية فائقة في ورقة ممزقة من دفتر مدرسي.
قربت يدها نحو موحى، وهمست بصوتها الرقيق الذي حمل كل أمومة العالم: "كول هادي أ موحى.. وجهك صفر، باين باللي ما فطرتيش."
فتحت الورقة قليلاً، فانسربت منها رائحة زيت الزيتون والعجين المخبوز. كانت نصف قطعة "مسمن" دافئة.
لم يمد موحى يده ليأكل. كانت معدته منقبضة من الرعب، لكنه لم يرفضها. أخذ القطعة الملفوفة بأصابعه المرتجفة والمجروحة من نحاس البارحة، ووضعها في حجره. رفع عينيه نحو زينب، ونظر إليها بنظرة امتنان عميقة، صامتة، نظرة تعادل ألف كلمة شكر. في تلك اللحظة القصيرة، وتحت سقف ذلك القسم الرطب والمتهالك، شعرتُ لبرهة أن العالم ليس سيئاً بالكامل، وأن وسط كل هذا الخراب، لا تزال هناك قلوب تنبض بالخير البكر.
لكن، كما تعلمنا فى "رباط الخير".. لحظات الدفء فى طفولتنا المنهكة، كانت دائماً قصيرة، ومسروقة، وتسبق العواصف الكبرى.
فجأة، وبلا مقدمات، انفتح الباب الخشبي للقسم بركلة قوية جعلت مفصلاته الصدئة تئن. تبدد الدفء المسروق في ثانية واحدة، وابتلعنا ريقنا برعب. دخل المعلم "سي حسن".

كان رجلاً ضخماً، يرتدي بذلة رمادية فضفاضة تفوح منها رائحة التبغ الرخيص. وقف أمام السبورة الخشبية المخدوشة كحارس سجن صارم، يرمي بنظراته الثاقبة من خلف نظارته الطبية السميكة التي تكبر عينيه وتجعلهما مخيفتين. مسح القسم بنظرة واحدة كانت كافية لتفرض صمتاً ثقيلاً يشبه صمت القبور؛ صمتٌ لا يقطعه سوى صوت حذائه الجلدي الأسود الثقيل وهو يضرب البلاط الإسمنتي جيئة وذهاباً.

كان موحى شارداً تماماً، جسده معنا في القسم، لكن روحه كانت تحوم حول حصير أمه المريضة. كانت يده لا تفارق جيبه، يفرك علبة الفازلين بعصبية ليتأكد من وجود نصف التذكرة الزرقاء والدراهم الأربعة التي تمثل طوق النجاة الوحيد.

لاحظ "سي حسن" شرود موحى في الصف الأخير. اقترب بخطوات ثقيلة ومدروسة كفهد يتربص بفريسته. رفع مسطرته الخشبية الغليظة عالياً في الهواء، وبكل ما أوتي من غضب أعمى، هوى بها على طاولتنا المتهالكة.

"طْرَاااخ!"

لم تكن تلك مجرد ضربة عادية. بالنسبة لحواس موحى المرهفة، والمستنفرة بفعل الخوف وقلة النوم، كانت كصعقة تيار كهربائي اخترقت جمجمته. انتفض جسده النحيل بعنف كطائر ذُبح للتو، شُلت أطرافه للحظة من هول الصدمة، وفي غفلة من أصابعه المرتخية، انزلقت العلبة البلاستيكية من جيبه.

سقطت العلبة على البلاط الإسمنتي الصلب.

بدا المشهد وكأنه يحدث في تصوير سينمائي بطيء.. "طْرَانْ... خْشْشْ...". رنّ صوت الدراهم الأربعة داخل البلاستيك الشفاف في هدوء القسم كقنبلة موقوتة. شهقت زينب بخوف ووضعت كلتا يديها الصغيرتين على فمها لتعض على صرختها. توقفت مسطرة "سي حسن" في الهواء، استدار ببطء، وتوجهت عيون أربعين طفلاً مرعوباً نحو مقعدنا.

اقترب المعلم، انحنى بجسده الضخم، والتقط العلبة قبل أن تصل إليها يد موحى المرتجفة. هزّها قليلاً قرب أذنه، فصدر صوت الدراهم مجدداً. التمعت عيناه خلف العدسات السميكة بنظرة احتقار خالصة، وقال بصوت جهوري قاسي تردد صداه في الجدران الرطبة:
«أش هادشي؟ ولينا كنجيبو الصنادق د الفلوس للقسم؟ منين شفرتي هادشي أ داك الدري المزنزن؟»
لم ينتظر "سي حسن" إجابة. استدار وعاد أدراجه ليضع العلبة فوق مكتبه الخشبي كغنيمة مصادرة، متمتماً بقسوة: «غاتبقى هنا.. حتى يجي شي حد من مالين دارك يربيك.»
في تلك اللحظة المفصلية، حدث شيء لم يتوقعه أحد، ولا حتى أنا الذي أعرفه جيداً. موحى، الطفل الانطوائي الصامت، الذي كان يبتلع إهانات الدنيا وشتائم صبيان الحي دون أن يرف له جفن، والذي كان يخشى حتى رفع صوته.. لم يبكِ. لم ينهَر.
انفجر بداخله بركان غريزي للدفاع عن حياة أمه. تلك الدراهم لم تكن مجرد مال يصادره معلم متسلط، بل كانت أوكسجيناً، كانت تذكرة النجاة الوحيدة من اليتم.
دفع موحى الطاولة بقوة مجنونة أسقطتني أرضاً. وفي حركته المفاجئة والعنيفة، انزلقت من حجره نصف قطعة "المسمن" الدافئة التي أهدتها له زينب، لتسقط على الأرضية المتسخة. قفز موحى كقط بري جريح نحو مكتب المعلم، وبحركة خاطفة أذهلت "سي حسن" وسمرت المعلم في مكانه، خطف علبة الفازلين.
تراجع المعلم خطوة للوراء من هول الصدمة، محاولاً استيعاب تمرد هذا الطفل النحيل. وفي تراجعه ذلك، هبط حذاؤه الجلدي الأسود الثقيل على الأرض..
ليدهس، بكل ثقله وعماه، قطعة "المسمن" الدافئة.
سمعتُ صوت العجين يُسحق تحت النعل القاسي. سُحق معه ذلك الشعاع الصغير من الرحمة والكرامة دون أن يرف للمعلم جفن.

لم ينطق موحى بكلمة واحدة. ضم العلبة إلى صدره بقوة كمن يحمي قلبه النابض، واستدار راكضاً نحو باب القسم المفتوح. أردتُ أن أصرخ باسمه، أردتُ أن أقف وأركض خلفه، لكن الرعب من عصا المعلم ومن هذا التمرد غير المسبوق سَمَّر قدميّ في الأرض. بقيتُ متجمداً في مكاني، كجبان صغير يرى صديقه يغرق ولا يجرؤ على مد يده.

اختفى طيف موحى في الممر المظلم كالسراب، تاركاً وراءه صمتاً مرعباً يصفر في الآذان، ومعلماً مذهولاً لا يزال رافعاً مسطرته في الفراغ، وزينب التي امتلأت عيناها الواسعتان بالدموع، تنظر إلى بقايا "المسمنة" المدهوسة تحت الحذاء، وكأنها تدرك بفطرتها الأنثوية المبكرة أن ما داسه المعلم لم يكن مجرد رغيف خبز.. بل كان قلب طفل بريء.

وأنا.. كنت أعلم جيداً، والدموع تحرق مآقي، أن موحى لم يهرب من المدرسة في تلك اللحظة... بل هرب من العالم كله.

الفصل الرابع

سمٌّ الأفعى

"ثْرْرْرْن..." صرخ جرس الاستراحة النحاسي المعلق في ساحة المدرسة، فمزق صوته الحاد بقايا الصمت المرتعب الذي خلفه هروب موحى. كطيور حبيسة فُتح باب قفصها الحديدي فجأة، اندفع التلاميذ من كل الأقسام نحو الساحة المتربة، يملؤون الفضاء بضجيج وصراخ يعيد للمكان فوضاه المعتادة.

لكن الساحة، رغم كل تلك الجلبة، بدت لي في تلك اللحظة مساحة كئيبة، موحشة، وباردة جداً بدون موحى.

لم أركض مع الراكضين. انسحبتُ بخطوات ثقيلة نحو زاوية معزولة، وأسندتُ ظهري إلى جدار قسمنا الخارجي المتآكل. وقفت أسفل نافذتنا ذات الزجاج المكسور مباشرة، أفرك يديَّ الباردتين اللتين فقدتا الإحساس بأطرافهما، بينما كان عقلي لا يزال عالقاً، يدور في حلقة مفرغة، عند مشهد الحذاء الجلدي الأسود وهو يسحق الرغيف الدافئ، وعند طيف صديقي وهو يركض محتضناً علبته البلاستيكية نحو المجهول.

فجأة، وسط زمهرير ذلك الصباح، شعرتُ بظلٍ خفيف يقترب مني، وتسللت إلى أنفي رائحة صابون "الطاووس" المألوفة.

كانت "زينب".

وقفت بجانبي بصمت لثوان. كانت عيناها الواسعتان لا تزالان تحملان مسحة حزن شفافةً إثر المشهد القاسي، لكن ملامح وجهها الدائري الصغير كانت تعكس تصميماً غريباً، وصلابة تفوق سنها الغض. نظرت إليّ، وبصوتها الخفيض الذي يمتلك قدرة سحرية على زرع الطمأنينة في أشد اللحظات رعباً، همست:

«معاد.. ما غانخليوش موحى بوحدو. فاش تسالي الحصة اللخرة، غانمشيو بجوج عند سي حسن للمكتب ديالو، نشرحو ليه الظروف ديال موحى.. هو راه أستاذ صعيب وقلبو قاصح، ولكن يقدر يعفو عليه إلى طلبناه ورغبناه وبكينا عليه.»

نظرتُ إليها مذهولاً من شجاعتها. في ذلك الزمن القاسي من طفولتنا، وفي مجتمعاتنا المهمشة، لم يكن أحد منا ـ ولا حتى المعلمون ـ يعرف شيئاً عن كلمة "توحد" أو كيفية التعامل مع طيفه. كنا، وكان العالم بأسره، نرى موحى مجرد طفل انطوائي، غريب الأطوار أحياناً، يثير حفيظة الكبار بصمته، ويثير

سخرية الصغار باهتزازه. لكن زينب، بفطرتها النقية، أدركت أنه ببساطة يحتاج لمن يفهمه، ولمن يقف كدرع بينه وبين قسوة العالم.

أومأتُ برأسي موافقاً فوراً، وشعرت بشعاع أمل دافئ يتسلل إلى قلبي المتعب، يذيب قليلاً من جبل الجليد الذي جثم على صدري منذ هروب صديقي.

لكن، ما لم نكن نعلمه في تلك اللحظة، أننا لم نكن وحدنا.

مباشرة فوق رؤوسنا، وخلف زجاج النافذة المفتوحة للقسم الذي ظنناه فارغاً، كان هناك ظلٌ آخر يتحرك ببطء. كان "سعد" يتلصص علينا، يحبس أنفاسه كأفعى تتكور على نفسها، تتحين اللحظة المناسبة للانقضاض وبث سمها.

كان سعد ابن أحد أغنياء حيّنا القلائل. طفل مدلل، يرتدي دائماً ملابس صوفية مستوردة تفوح منها رائحة الرفاهية وعطر الغسيل الفاخر الذي لا يُباع في حوانيتنا البائسة. ورغم أن جيوبه كانت دائماً ممتلئة بالقطع النقدية والحلويات الملونة، إلا أن قلبه كان ينضح كرهاً دفيناً لي ولموحى. كان يستمتع دائماً بتشويه صورتنا أمام الأساتذة، ربما ليعوض عقدة نقص غريبة بداخله، أو لأنه ببساطة،

ورغم كل ألعابه المستوردة، لم يفهم يوماً كيف يمكن لطفلين بائسين، لا يملكان ثمن حذاء جديد، أن يمتلكا سعادة سرية وصداقة نقية لا تُشترى بكل مال والده.
رأيتُ طرف سترته الزرقاء الفاخرة يختفي بسرعة خلف إطار النافذة، لكنني لم أعر الأمر اهتماماً كبيراً حينها، فقد كان عقلي مشغولاً بالخطة التي رسمتها زينب لإنقاذ موحى. لم أكن أدرك أن تلك الأفعى الصغيرة قد التقطت للتو سلاحها المسموم.

انتهت الحصة الأخيرة، ثقيلة وبطيئة كجبل من الرصاص. بمجرد أن رن الجرس معلناً نهاية الكابوس اليومي، تبادلتُ أنا وزينب نظرة ذات مغزى، وانطلقنا نركض في الممر الطويل ذي البلاط المكسر نحو مكتب "سي حسن"، نسابق الزمن قبل أن يغادر المدرسة. كانت أنفاسنا تتلاحق، وقلبي يقرع أضلعي كطبل حرب تحسباً للمواجهة.
لكننا، حين وصلنا إلى الباب الخشبي الموارب، تسمرنا في أماكننا. كان هناك من سبقنا.
كان "سعد" يقف أمام مكتب المعلم، يشبك يديه الناعمتين خلف ظهره في تمثيلية براءة متقنة. كانت رائحة عطره النفاذة تتصارع مع رائحة التبغ الرخيص والورق القديم التي تملأ المكتب. وبصوت متملق، لزج، تقطر منه الخباثة كما يقطر السم من أنياب أفعى، سمعناه يقول: «أستاذ.. راه داك موحى ديما كيسرق الفلوس وكيتعدى علينا فالدرب، ومعاد راه ديما كيعاونو ويغطي عليه!»
تسمرتُ في مكاني عند العتبة. أحسست بالدم يغلي في عروقي حتى كاد رأسي ينفجر من فرط القهر. اندفعتُ خطوة إلى الأمام، حاولت أن أنطق بكلمة، أن أصرخ بأعلى صوتي لأشرح للمعلم أن هذا الطفل المكسو بالصوف الفاخر كذاب أشر، وأن الفقر لم يجعل منا لصوصاً يوماً. لكن "سي حسن" رفع رأسه الثقيل، ورمقني بنظرة نارية من خلف عدساته السميكة؛ نظرة حادة كشفرة حلاقة، أسكتتني تماماً وجمّدت الكلمات في حنجرتي. بدا

وكأنه صدّق رواية الغنيِ المدلل على الفور. ففي عالمنا المقلوب، الفقر تهمة جاهزة سلفاً، والثياب الأنيقة صك براءة لا يُناقش.
هنا، حدث ما لم يتوقعه أحد، ولا حتى أنا.
زينب، تلك الفتاة الرقيقة، ذات الصوت الحنون الذي يفيض بالخجل، تبدلت تماماً. احتقن وجهها الأبيض بالغضب حتى توردت وجنتاها كجمرتين مشتعلتين. تقدمت نحوى، وأمسكت يدي المرتجفة بقوة، كأنها تستمد مني وتمنحني الشجاعة التي سلبتنا إياها نظرة المعلم. ثم، بخطوات ثابتة وغاضبة، تقدمت نحو سعد.
في ومضة خاطفة حبستُ لها أنفاسي، رفعت زينب يدها الصغيرة في الهواء. ارتفعت يدها بقوة وكادت أن تصفعه على وجهه الممتلئ بالغرور، لولا أنها تداركت الموقف في آخر ثانية، وقبضت على أصابعها بقوة حتى ابيضت مفاصلها، وأنزلت يدها في الهواء كمن يبتلعٍ غضبه كالجمر.
تجاهلت سعد تماماً، وكأنه مجرد ظل لا يستحق النظر، والتفتت إلى "سي حسن".
وببراعة إقناع فطرية، وبصوت يمزج بين الرقة الباكية والحزم الذي لا يقبل التكذيب، بدأت تسرد له الحقيقة العارية. أخبرته، والدموع تترقرق في عينيها الواسعتين، عن أم موحى التي تحتضر وتلفظ أنفاسها على حصير بارد. أخبرته كيف أنٍ ذلك الطفل الذي يصفونه بـ "المزنزن"، يجمع القروش، درهماً درهماً، من المزابل وأسلاك النحاس التي تجرح يديه، ليشتري تذكرة حافلة تنقذ أمه من موت محقق. صرخت بصوت مخنوق أن الفقر، والرعب من اليتم، وليس قلة الأدب أو اللصوصية، هما ما دفعاه للقفز كقط بري لحماية علبته البلاستيكية المهترئة.
كانت كلماتها كالسحر. تعويذة صدق حارة اخترقت، كالسهم، دروع "سي حسن" الصارمة.

في صمت المكتب الذي أعقب كلماتها، رأيت المعلم القاسي ينهار من الداخل. تنهد بعمق أزاح جبالاً من القسوة عن كتفيه، خلع نظارته السميكة ببطء شديد، وأخرج من جيبه منديلاً قماشياً ليمسح زجاجها؛ وكأنه يمسح غشاوة سميكة عن بصيرته التي أعمتها الأيام.

أومأ برأسه ببطء، ونظر إلينا بعينين مجردتين من الزجاج ومن القسوة، وقال بنبرة خفيضة، فقدت كل حدتها، نبرة رجل أدرك للتو حجم جريمته: **«سيرو.. قولو لداك الدري يرجع غدا... وغانشوفو.»**

خرجنا من بوابة المدرسة الحديدية وكأننا نحمل الدنيا على أكتافنا فرحاً؛ لقد انتصرنا للتو في معركة غير متكافئة. اقترحتُ على زينب، ونحن نركض في الأزقة، أن نذهب فوراً للبحث عن موحى في مكب "لشفاق"؛ ذلك المكان الموحش الذي تحول إلى ملاذه الوحيد، حيث يلجأ لجمع الخردة كلما ضاقت به الدنيا ولفظته الشوارع.

وصلنا إلى هناك نلهث، تغلغل دخان القمامة المحترق في رئتينا، وبحثنا بين تلال الخردة والروائح الكريهة، لكننا لم نجد له أثراً. لم نيأس. أكملنا طريقنا، وبينما نحن نعبر الأزقة المتعرجة والضيقة لحي "السهب اليازغي"، لمحنا طيفه من بعيد.

كان يقف بجوار "مول جافيل". كان العجوز يزن له بعض قطع القصدير القديم والمُطوى الذي جمعه موحى بيديه المليئتين بالخدوش الحديثة.

ركضنا نحوه والفرحة تسبقنا. وقبل أن ألتقط أنفاسي وأنطق بكلمة واحدة لأبشره بموقف "سي حسن"، تراجع موحى خطوة سريعة للوراء. بعينين مذعورتين كأرنب وقع في الفخ، شدّ يده بقوة على جيبه حيث ترقد علبة الفازلين، وقال بحدة وانفعال لم نعهدها في صوته الخافت: **«ما غانرجعش لداك القسم.. عمرني نرجع! غيضربوني ويديو ليا الفلوس د مي!»**

نظرتُ إليه بعجز تام. الكلمات تبخرت من رأسي، ولم أعرف كيف أهدئ من روعه المبرر. لكن زينب، كعادتها، كانت تملك المفتاح.
اقتربت منه ببطء شديد، بخطوات محسوبة كمن يقترب من عصفور جريح يوشك على الطيران. لم تستخدم الشفقة في نظراتها، بل تحدثت معه بلغة لا يفهمها سواه؛ لغة خالية من أوامر الكبار ومليئة بالأمان الصافي. بصوتها الحنون، أخبرته أن هروبه وبقاءه هائماً في الشارع سيزيد من مرض أمه، وأن عودته غداً والمواجهة هي السبيل الوحيد ليكون رجلاً قوياً يحميها.
كانت كلماتها تتساقط على قلبه المذعور كقطرات ماء بارد على نار مشتعلة. شيئاً فشيئاً، تحت تأثير سحر هذا الدفء، لانت ملامح موحى المتشنجة، ارتخت قبضته عن جيبه ببطء، وأومأ برأسه الثقيل موافقاً على العودة.
عدنا أدراجنا معاً، والسكينة تملأ قلوبنا الصغيرة. ودعنا زينب عند بداية الزقاق الذي يسبق حيّنا بقليل، لتكمل طريقها إلى منزلها. أكملتُ طريقي مع موحى، تلامس أكتافنا جدران الطين، ونحن نظن بطفولتنا الساذجة أن العاصفة قد

في صمت المكتب الذي أعقب كلماتها، رأيت المعلم القاسي ينهار من الداخل. تنهد بعمق أزاح جبالاً من القسوة عن كتفيه، خلع نظارته السميكة ببطء شديد، وأخرج من جيبه منديلاً قماشياً ليمسح زجاجها؛ وكأنه يمسح غشاوة سميكة عن بصيرته التي أعمتها الأيام.

أومأ برأسه ببطء، ونظر إلينا بعينين مجردتين من الزجاج ومن القسوة، وقال بنبرة خفيضة، فقدت كل حدتها، نبرة رجل أدرك للتو حجم جريمته: «سيرو.. قولو لداك الدري يرجع غدا... وغانشوفو.»

خرجنا من بوابة المدرسة الحديدية وكأننا نحمل الدنيا على أكتافنا فرحاً؛ لقد انتصرنا للتو في معركة غير متكافئة. اقترحتُ على زينب، ونحن نركض في الأزقة، أن نذهب فوراً للبحث عن موحى في مكب "لشفاق"؛ ذلك المكان الموحش الذي تحول إلى ملاذه الوحيد، حيث يلجأ لجمع الخردة كلما ضاقت به الدنيا ولفظته الشوارع.
وصلنا إلى هناك نلهث، تغلغل دخان القمامة المحترق في رئتينا، وبحثنا بين تلال الخردة والروائح الكريهة، لكننا لم نجد له أثراً. لم نيأس. أكملنا طريقنا، وبينما نحن نعبر الأزقة المتعرجة والضيقة لحي "السهب اليازغي"، لمحنا طيفه من بعيد.
كان يقف بجوار "مول جافيل". كان العجوز يزن له بعض قطع القصدير القديم والمُطوى الذي جمعه موحى بيديه المليئتين بالخدوش الحديثة.
ركضنا نحوه والفرحة تسبقنا. وقبل أن ألتقط أنفاسي وأنطق بكلمة واحدة لأبشره بموقف "سي حسن"، تراجع موحى خطوة سريعة للوراء. بعينين مذعورتين كأرنب وقع في الفخ، شدّ يده بقوة على جيبه حيث ترقد علبة الفازلين، وقال بحدة وانفعال لم نعهدها في صوته الخافت: «ما غانرجعش لداك القسم.. عمرني نرجع! غيضربوني ويديو ليا الفلوس د مي!»
نظرتُ إليه بعجز تام. الكلمات تبخرت من رأسي، ولم أعرف كيف أهدئ من روعه المبرر. لكن زينب، كعادتها، كانت تملك المفتاح.
اقتربت منه ببطء شديد، بخطوات محسوبة كمن يقترب من عصفور جريح يوشك على الطيران. لم تستخدم الشفقة في نظراتها، بل تحدثت معه بلغة لا يفهمها سواه؛ لغة خالية من أوامر الكبار ومليئة بالأمان الصافي. بصوتها الحنون، أخبرته أن هروبه وبقاءه هائماً في الشارع سيزيد من مرض أمه، وأن عودته غداً والمواجهة هي السبيل الوحيد ليكون رجلاً قوياً يحميها.

كانت كلماتها تتساقط على قلبه المذعور كقطرات ماء بارد على نار مشتعلة. شيئاً فشيئاً، تحت تأثير سحر هذا الدفء، لانت ملامح موحى المتشنجة، ارتخت قبضته عن جيبه ببطء، وأومأ برأسه الثقيل موافقاً على العودة.
عدنا أدراجنا معاً، والسكينة تملأ قلوبنا الصغيرة. ودعنا زينب عند بداية الزقاق الذي يسبق حيّنا بقليل، لتكمل طريقها إلى منزلها. أكملتُ طريقي مع موحى، تلامس أكتافنا جدران الطين، ونحن نظن بطفولتنا الساذجة أن العاصفة قد

مرت، وأن غداً سيكون يوماً أفضل.
لكن، عند وصولنا إلى ناصية دربنا، تسمرت أقدامنا وكأن دلاء من الماء المثلج سُكبت دفعة واحدة على رؤوسنا.
كانت هناك تجمهرة غريبة. حلقة من نساء الحي يقفن أمام باب بيتي، أذرعهن معقودة على صدورهن في وضعية المحاكمة الجاهزة. وفي وسطهن، يقف "سعد" بسترته الزرقاء الأنيقة. كان يلوح بيديه، يتباكى بدموع تماسيح متقنة، ويقص عليهن أكاذيب مسمومة ومحبكة: كيف أن موحى "المزنزن" هاجم المعلم بوحشية، وسرق مالاً من القسم، وأنه طفل شوارع سيء الأخلاق ومجرم صغير.
كانت النساء يتهامسن كأفاعٍ تتبادل السم، يضربن أخماساً في أسداس، ويلقين على موحى ـ الذي تجمد في مكانه ـ نظرات اشمئزاز قاطعة.
والأقسى.. والأكثر إيلاماً من ذلك كله، كانت أمي تقف بينهن. أمي التي أعرف حنانها ورقة قلبها، استسلمت تماماً لتلك الرواية الكاذبة تحت ضغط "كلام الناس" والخوف الأعمى عليّ.
حاولتُ التدخل لإنقاذ الموقف، صرخت بأعلى صوتي محاولاً تمزيق شبكة الأكاذيب: «مي! راه سعد كيكدب! موحى ما دار والو! المعلم اللي تعدا عليه!»

لكن أمي، التي أعماها الخوف الاجتماعي من فضيحة مرافقة "لص"، تقدمت نحوي بخطوات غاضبة. جذبتني من يدي بقوة أوجعتني، ودفعتني نحو عتبة الدار، وصرخت في وجهي أمام أعين الجميع بصوت حاسم، يشبه حكم إعدام لا يقبل الاستئناف: «من اليوم، ما بقيتيش تمشي ولا تلعب ولا تهدر مع هاد الدري! دخل للدار وسالينا!»

قوة الدفعة جعلتني أتعثر داخل العتبة. التفتُّ خلفي بدموع العجز قبل أن يُغلق البابِ. رأيت موحى يقف وحيداً في وسط الزقاق. منكسراً، محطماً، يبتلعه صمت الشارع ونظرات الاحتقار التي تنهش لحمه النحيل. أحسست بخيانة بشعة تسري في عروقي؛ خيانة الجيران الذين صدقوا الغني وكذبوا الفقير، خيانة سعد، وعجزي التام والمرير لأن زينب، درعنا الواقي، لم تكن معي في تلك اللحظة لتنقذ الموقف.

"طْرَاخ!" أغلق الباب الخشبي الثقيل فيٍ وجهي بقوة، وكأنه مقصلة فصلت بين عالمين. انزلقتُ جالساً على الأرض الباردة، أسند ظهري إلى الباب من الداخل، أستمع لخطوات حذاء موحى البلاستيكي الثقيلة وهي تبتعد في الزقاق المظلم.. خطوة.. خطوة.. حتى تلاشت تماماً.

كان العزاء الوحيد الذي خفف من وطأة تلك الليلة القاسية، وجفف دموعي قليلاً، هو خبرٌ تسلل إلينا لاحقاً مع الجارة "للا زهور": أم موحى شربت دواءها أخيراً، وبدأت حمّاها تنخفض قليلاً وتستعيد وعيها.

لكن، للأسف، ورغم هذا التعافي الجسدي للأم.. كان قلب ابنها في تلك الليلة الموحشة، قد احترق سلفاً بنار الخذلان التي لا يطفئها دواء.

الفصل الخامس

انكسار الأفعى

استيقظتُ في صباح اليوم التالي وعيناي محملتان بثقل ليلة البارحة، محمرتان وكأنني لم أنم دقيقة واحدة. كان صقيع "رباط الخير" يلسع الوجوه بلا رحمة، وهواء جبل "بويبلان" الذي يظهر شامخاً ومكللاً بالثلوج في الأفق الشرقي، يتسلل من شقوق النوافذ الخشبية إلى العظام، ليجمد الأطراف ويجعل الأنفاس تخرج كغيوم بيضاء متقطعة.

لكن البرودة الحقيقية، تلك التي لا تنفع معها المعاطف الصوفية الثقيلة ولا كؤوس الشاي الساخن، كانت تستوطن صدري.

على مائدة الإفطار البلاستيكية، كان الصمت سيد الموقف. لم يُسمع سوى صوت ارتطام كؤوس الزجاج بصينية الألمنيوم. كانت نظرات أمي، التي تجلس قبالتي، صارمة، محذرة، ومصممة، وكأنها تقرأ أفكاري وتستبق أي محاولة مني للتمرد أو استعطافها. ناولتني محفظتي القماشية المهترئة، وبنبرة قاطعة، جافة، لا تقبل الاستئناف أو النقاش، قالت وهي تشير بإصبعها نحو الباب: «شد طريقك نيشان للمدرسة.. وإلا سمعت أولا شفتك واقف مع داك الدري، غاتشوف شي حاجة ما غاتعجبكش! حنا ماشي قد المشاكيل مع الجيران!»

ابتلعتُ غصتي الجافة مع آخر لقمة خبز، وخرجتُ من الدار أجرّ خطواتي الثقيلة كأنني أساق إلى سجن انفرادي.

تجاوزت الباب الخشبي الداخلي الثقيل؛ ذلك الباب الذي صفقته أمي في وجهي البارحة كحاجز أصم بيني وبين الحقيقة. ثم امتدت يدي الباردة لتسحب مزلاج الباب الحديدي الخارجي المطل على الزقاق. "كْرْرْيتْ..." أحدث احتكاك الحديد بالحديد صوتاً معدنياً حاداً ومزعجاً، خدش طبلة أذني وزاد من وحشة ذلك الصباح الكئيب.

مجردٍ أن وطئت قدماي زقاق "السهب اليازغي"، بدأت أتلفت يميناً ويساراً كاللص. أبحث بعينيّ في زوايا الدرب عن طيف موحى، أتمنى لو يخرج من خلف أحد الجدران الطينية كعادته كل صباح لنكمل طريقنا معاً، لكنني لم ألمحه. لأول مرة منذ عرفته، أمشي في طريق المدرسة الطويل والمتعرج وحيداً. كان ظلي يمتد أمامي على الإسفلت البارد كرفيق وحيد. كنت أشعر وكأنني خائن؛ جبان صغير تخلّى عن رفيق دربه في أشد لحظات ضعفه، لا لشيء سوى بسبب وشاية كاذبة من طفل حاقد وتصديقٍ أعمى من نساء الحي اللواتي يعشقن الدراما المجانية.

وعندما وصلت أخيراً إلى المنعطف الأخير، حيث تظهر بوابة المدرسة الحديدية

من بعيد، وتتجمع أسراب التلاميذ بوزراتهم المتشابهة.. رأيته.

كان موحى يمشي على الجانب الآخر من الرصيف، قريباً من الجدار وكأنه يحاول أن يندمج معه ليختفي. كان منكمشاً داخل سترته البالية التي لا تقوى أزرارها المفقودة على صد هواء "بويبلان" القاسي. كانت يداه مدسوستين بعمق في جيوبه، ليس فقط اتقاءً للزمهرير، بل ليحرس جمرته الوحيدة: علبة الفازلين.

نظرتُ إلى مسيرته من بعيد. كانت خطواته بطيئة، مثقلة بجبال من الهموم التي لا تناسب عمره، ومترددة كخطوات سجين يساق إلى حتفه. كان يعلم، وأنا أعلم، أن بوابة المدرسة التي نقترب منها ليست سوى فم وحش ينتظر ابتلاعه، وأن "سي حسن" يقف هناك، مسلّحاً بمسطرته وبأكاذيب "سعد".

أردتُ أن أركض نحوه، أن أقطع الشارع وأمسك بيده، لكن طيف أمي وتهديدها الصارم سَمَّر قدميّ في مكانهما. فدخلنا من البوابة الحديدية معاً.. لكن، تفصل بيننا مسافة بدت لي في تلك اللحظة أوسع من المحيط.

دخلنا القسم، فاستقبلنا ذلك الهواء البارد والثقيل المعبأ برائحة الطباشير المتناثر والخشب القديم. كان الصمت فيه يزن أطناناً، يكاد يخنقنا. جلسنا في أماكننا المعتادة، لكن المسافة النفسية بيني وبين موحى، الذي كان يجلس بجانبي، بدت كهاوية لا قرار لها. لم يلتفت إليّ، ولم أنبس بكلمة. كانت عيناه مسمرتين نحو الأرض، وجسده النحيل مشدوداً كوتر كمان يوشك على الانقطاع.
التفتُّ خلسة نحو مقعد "زينب" أمامنا. كانت تعصر يديها الصغيرتين ببعضهما أسفل الطاولة الخشبية بقوة حتى ابيضت مفاصلها. كانت شفتيها تتحركان بتمتمة خفيفة، سريعة وغير مسموعة، لعلها تقرأ آية قرآنية أو تدعو الله بقلب طفلة نقية أن يلين قلب المعلم "سي حسن"، وألا ينسى التوسلات والدموع التي قدمتها له بالأمس في مكتبه.
في الجهة المقابلة من القسم، كان "سعد" يجلس مفرود الظهر، يرمق موحى بنظرات جانبية مليئة بالشماتة. كان ينتظر بفارغ الصبر اللحظة التي ستسقط فيها المقصلة.
أخيراً، دخل "سي حسن". وضع محفظته الجلدية على المكتب، مسح القسم بنظرته الصارمة المعتادة، ثم كسر ذلك الصمت الخانق بصوته الجهوري الذي جعل قلوبنا تقفز في حناجرنا.
رفع يده الغليظة، وأشار بسبابته مباشرة نحو مقعدنا في الصف الأخير، وقال بحزم صارم لا يقبل التردد: «موحى.. زيد لهنا. وجبد داكشي لي مخبي فجيبك!»
شهق القسم بأكمله شهقة مكتومة. التفت سعد في مقعده بانتصار أكبر، وارتسمت على شفتيه الممتلئتين ابتسامة خبيثة واسعة، ظناً منه أن المعلم سيفضح "سرقات" موحى المزعومة أمام الملأ، وسيطرده شر طردة.
وقف موحى ببطء شديد. تقدم بخطوات مرتجفة، يسحب قدميه سحباً في حذائه البلاستيكي نحو المكتب، وكأن كتلاً من الرصاص قُيدت في كاحليه. وبيدين ترتعشان بعنف من شدة الخوف وبرد الصباح القارس، أدخل يده إلى جيبه.

أخرج "علبة الفازلين" الزرقاء البالية.
وصل إلى المكتب، ووضع العلبة على حافته الخشبية بيد مرتعشة أحدثت طقطقة خفيفة حين لامس البلاستيك خشب الطاولة. وبحركة بطيئة، كما لو كان يسلم روحه لجلاده، دفع الغطاء وفتحه.
ظهرت بداخل العلبة الدراهم الأربعة البائسة، ثمن دواء أمه، تلمع ببرود تحت ضوء الصباح الشاحب المتسلل من النافذة. كانت تلك الدراهم تخفي أسفلها بالكاد نصف التذكرة الورقية الزرقاء والمتهالكة، التي تحمل حلم الإنقاذ الأكبر.. وهو النصف الذي، لحسن الحظ، لم يلمحه "سي حسن"، أو ربما لم يعره اهتماماً في غمرة ذلك المشهد المشحون.
تسمرت العيون كلها نحو المكتب. نظر "سي حسن" إلى العلبة طويلاً. ثم رفع عينيه ببطء ليتأمل وجه موحى؛ وجه طفل شاحب كالموتى، عيناه غائرتان تحيط بهما هالات السهر والرعب من اليتم، وملابسه الرثة تفضح قسوة واقعه.
في تلك اللحظة الصامتة، بدا وكأن صدى كلمات زينب الرقيقة، التي مزقت حجاب الأكاذيب بالأمس، قد عاد ليرن في أذنيه. بدا وكأنه يرى لأول مرة ليس "الطفل المزنزن" أو "السارق"، بل طفلاً يقاتل وحيداً لإنقاذ أمه.
تنهد المعلم تنهيدة عميقة، ثقيلة، حركت شاربه الكثيف وجعلت صدره العريض يرتفع ويهبط. ثم، وبصوت يحمل خشونة متعمدة ـ خشونة فرضتها عليه سنوات من لعب دور "المعلم القاسي" ـ لكنها تخفي وراءها شيئاً نادراً من الرحمة الأبوية، مدّ يده الضخمة. بأطراف أصابعه، دفع العلبة بلطف على سطح المكتب لتنزلق عائدة نحو صدر موحى، وقال بنبرة خفيضة سمعها القسم كله: «سد ديك الطاسة وديرها فجيبك.. وماتبقاش تجبدها فالقسم باش ما تطيحش ليك.» ثم رفع صوته قليلاً ليحافظ على هيبته المعتادة، وأردف بتهديد مبطن بالرحمة: **«سير لبلاصتك.. ومرة وخرى إلى هربتي من القسم، غنهرس ليك دوك الرجلين! مفهوم؟»**

كانت تلك الجملة الخشنة، رغم قسوة ألفاظها الظاهرية المعتادة في قاموس مدارسنا، بمثابة إعلان براءة رسمي أمام أربعين تلميذاً، وإسقاطاً نهائياً لتهمة السرقة التي حاكها سعد.

لم يصدق موحى أذنيه. لبضع ثوانٍ، بقي متسمراً في مكانه يحدق في وجه "سي حسن"، وكأنه يخشى أن يكون هذا العفو مجرد فخ جديد. لكن نظرة المعلم التي خلت من أي تربص أكدت له النجاة.
بحركة خاطفة، كطير ينقض على حبة قمح، التقط موحى العلبة البلاستيكية بسرعة البرق. دسها في جيبه العميق، وضم يده إلى صدره بقوة كمن يستعيد روحه التي كادت أن تُسلب منه. وقبل أن يستدير عائداً إلى مكانه، رمق المعلم بنظرة امتنان صامتة، عميقة، أبلغ من ألف قصيدة شكر.
في طريق عودته البطيئة نحو مقعدنا في الصف الأخير، التفت موحى نحو المقعد الذي تجلس فيه "زينب". كانت تلك اللحظة السينمائية الصامتة التي تختزل كل معاني الإنسانية في قسم بائس. تبادلا نظرة سريعة؛ هي أومأت برأسها إيماءة خفيفة، دافئة، امتلأت بها عيناها الواسعتان بالرضا وكأنها تمسح على قلبه المذعور. وهو، ولأول مرة منذ أيام، أشرق وجهه المتعب بلمحة ارتياح حقيقية، أذابت قليلاً من الجليد الذي كسا ملامحه، وأضاءت عتمة عينيه للحظة.
عاد موحى ليجلس بجانبي. سمعت تنهيدته الطويلة، وكأن جبلاً من صخر "بويبلان" قد انزاح للتو عن كاهله النحيل.
وفي تلك اللحظة بالذات، انزلقت عيناي لترصد الجانب المظلم من هذا المشهد. وجهتُ نظري نحوٍ مقعد "سعد".
كان المشهد هناك مختلفاً تماماً. كان وجهه الممتلئ والمدلل محتقناً بالغيظ الشديد، تجمعت الدماء في وجنتيه حتى صارتا بلون الجمر. ملامحه كانت متشنجة، وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما صدمةً وعدم تصديق لما رآه للتو. لقد انهارت خطته المحكمة داخل القسم؛ تلك الخطة التي نسجها بخبث ليطرد هذا

الفقير "المزنزن" من عالمه. لقد كسرت شفاعة زينب، وبراءة موحى، وموقف المعلم، كل السم الذي نفثه بالأمس.
كان سعد يغلي من الداخل. ومن شدة غضبه وعجزه عن الرد أو الاعتراض، أمسك قلم الرصاص الخشبي الأصفر بين أصابعه الممتلئة، وضغط عليه بقوة جنونية.
"طْقْ!"
كسر القلم الخشبي نصفين بصوت جاف ومسموع، تشظت حوافه وتناثرت بقايا الرصاص الأسود على طاولته. كان ذلك الصوت القصير، هو إعلان الهزيمة الرسمي لـ "سعد" وانكسار كبريائه المتعالي.
انتهت الأزمة في القسم، وعادت حصة الرياضيات المملة لتأخذ مجراها. احتفظ موحى بمكانه، وبدراهمه الأربعة، وبكرامته التي كادت أن تُسحق.
لكنني، وأنا أجلس في مقعدي، أسترق النظر إلى ظهر صديقي النحيل الذي استرخى قليلاً، كنت أعلم جيداً في قرارة نفسي أن المعركة لم تنتهِ بعد. لقد انتصرنا في القسم، نعم.. هزمنا مكيدة سعد القذرة وأنقذنا مال الدواء. لكن،
خارج أسوار المدرسة، وفي أزقة "رباط الخير" الموحلة، كانت هناك حرب أخرى قاسية تنتظرنا. حرب استنزاف باردة ضد مجتمع بأكمله؛ ضد عقول الجيران التي صدقت الكذب وتلذذت بنهش لحم الضعفاء، وضد أمٍّ تنتظرني خلف بابين، باب خشبيٍ وآخر حديدي، لتفرض عليّ قطيعة أبدية مع رفيقي الوحيد، خوفاً من وحش لا يرحم يُدعى: "كلام الناس".

الفصل السادس

أسطورة الغياب.. هل مات الأب؟

لم تكن رابعة عصر ذلك السبت تشبه سابقاتها أبداً.
حين شق رنين الجرس النحاسي صمت المدرسة الكئيب، لم يعلن فقط عن نهاية حصص دراسية ثقيلة، بل كان كمن يشرّع نوافذ سجن ضاقت بهوائه صدورنا. تدافعنا أنا وموحى وزينب نحو البوابة الحديدية مع سيل التلاميذ، نعانق صقيع الخريف البارد، ونملأ رئتينا بهواء الحرية، وكأننا نتعلم التنفس من جديد بعد أيام طويلة من الاختناق تحت مقصلة الخوف.
كانت غيوم الشك السوداء قد انقشعت أخيراً عن سماء حيّنا صبيحة ذلك اليوم. فالأسرار في أزقتنا الشعبية لا تعمر طويلاً، وكما تُبنى الأكاذيب بسرعة، تُهدم الحقيقة بسرعة أكبر متى وجدت طريقها إلى "بريد العتبات". وما إن نقلت زينب تفاصيل محاكمة القسم وتبرئة موحى إلى أمها، حتى تكفلت هذه الأخيرة، عبر وشوشات النساء أمام باب دكان "بنقاسم" التقليدي، بنشر الحقيقة العارية.
تهاوت رواية "سعد" المفتعلة كقصر من ورق. وأدركت أمي، كغيرها من نساء الحي اللواتي تسرعن في الحكم، أننا كنا جميعاً ضحية طفل مدلل يتقن نسج الأكاذيب لتغطية فراغه الداخلي. ورغم أن ثقافة "الاعتذار" الصريح غائبة تماماً عن قاموس الأمهات في مجتمعنا، إلا أن صمت أمي ونظراتها الهادئة صبيحة ذلك اليوم حين ناولتني فطور، وتجاهلها لتهديدات الأمس، كانت بمثابة صك براءة غير معلن لصديقي، ورفْعاً نهائياً لحظر التجول الذي كاد يخنقني.

مشينا معاً، أنا وموحى. اندمجت خطواتنا مع حصى الطريق الإسفلتي المتشقق. وفي غمرة صمتنا المثقل بالارتياح، تسمرت عينا موحى فجأة نحو كومة ردم ترابية أسفل جدار طيني متهالك.
توقفت الكاميرا في عينيه. بخفة ومهارة من اعتاد التقاط فرصٍ النجاة من بين الأنقاض، انحنى موحى نحو التراب ليسحب أسلاكاً نحاسية متشابكة نسيها عمال البناء. أمسكها بين أصابعه المجروحة، ونفض عنها الغبار بعناية بالغة كمن ينفض الغبار عن سبيكة ذهبية. ثم دسها في جيب معطفه البالي، وابتسامة رضا نادرة تضيء زوايا وجهه الشاحب، وهو يهمس لي بصوته الخفيض: «هادو غانخبيهوم لغدا فالصباح.. مول جافيل غايفرح بيهوم.»
نظرتُ إليه. لم تكن تلك الأسلاك تلمع في عينيه كخردة صدئة، بل كانت تلمعٍ كقروشٍ معدنية تضاف إلى "علبة الفازلين".. قروش تشتري يوماً إضافياً من الأمان لأمه.

لم نكد نودع زينب عند ناصية زقاقها، ونستدير لإكمال طريقنا، حتى فاجأنا صوت لهاث متسارع يشق سكون المساء، مصحوباً بوقع أقدام تركض بجنون.
التفتنا بسرعة. كان "سليم"، أحد أبناء الدرب، يركض نحونا من بعيد. كان يتعثر في أنفاسه، يلوح بيديه في الهواء كطاحونة معطوبة، ويصرخ بصوت متقطع وصل إلينا قبل أن يصل جسده: «موحى!.. مك.. مك..!»
تجمدت الدماء في عروقي في كسر من الثانية، واختلجت يد موحى بجانبي وكأن تياراً كهربائياً صعقه. اتسعت حدقتاه رعباً. هل سقطت الأم؟ هل عاد المرض لينهش جسدها المنهك بعد أن ظننا أنها تتعافى؟ هل لفظت أنفاسها الأخيرة؟
تسابقنا نحوه وقلوبنا تقفز من حناجرنا لتسبق أقدامنا. وصلنا إليه نلهث، ليلتقط سليم أنفاسه أخيراً، وينحني واضعاً يديه على

ركبتيه، ثم يمسح العرق عن جبينه ويردف: «مك راها كتسناك.. لبسات جلابتها وقالت ليك بغات تمشي معاك للفيلاج تبدل شويا الجو!»

انساب الهواء عائداً إلى رئتينا دفعة واحدة، وكأننا صعدنا للتو من قاع بئر عميق. "الفيلاج".. ذلك المتنفس الأخضر الوحيد في بلدتهم، حيث الحديقة العمومية التي تبتلع هموم الناس في مساراتها هرباً من ضيق الغرف الرطبة.

لم ينطق موحى بكلمة، لكن وجهه أشرق بفرحة لم أرها فيه قط. انطلق كالسهم، يركض نحو بيته ليزف لنفسه ولأمه لحظة صفاءٍ نادرة تحت شمس الخريف، بينما حملتُ أنا خطواتي المطمئنة نحو عتبة دارنا، مستعداً لاحتضان مكافأتي الخاصة.

لم يكد الباب الخشبي لدارنا يُغلق خلفي حتى تخلصت من عبء المحفظة القماشية. رميتها في زاوية الغرفة كشيء لا قيمة له، وبحثت عن ملاذي المعتاد. ارتميت على سجاد الصالة، مسلماً نفسي لعوالم الشاشة المضيئة.

كانت قناة "الجزيرة للأطفال" هي نافذتنا السحرية. تلك الشاشة التي طالما أسرتنا ببرامجها، قبل أن تُختزل هويتها لاحقاً في حرف "ج" يتيم، وتبتلعها شبكات التشفيرٍ لتغتال متعتنا وتسرق منا جزءاً عزيزاً من طفولتنا. كنت غارقاً بكل حواسي في تفاصيل سلسلة الأنمي الياباني "من أجل البقاء" (Survive)، أراقب أبطاله الصغار وهم يصارعون الصعاب في كوكب مهجور، موقناً في سريرتي أنني أشبههم تماماً؛ أصارع للبقاء في عالم الكبار المعقد وقوانين الحي القاسية.

لكن، وقبل أن تكتمل نشوتي وتندمج روحي مع الخيال، حدث الإظلام.

"طْفْ!" سُحب خيط الكهرباء من المقبس الجداري بحركة خاطفة. ابتلعت الشاشة السوداء أبطالي في لمح البصر، ليعقبها صوت أمي الآمر، الذي يعيدك للواقع بقسوة: **«نوض جيب لينا السفنج لكاسكروط.. باك غايدخل دابا!»**

لم يكن أمامي سوى التقاط القطع النقدية من يدها الممدودة، مجرداً من أي حق في التذمر.
في الخارج، قادتني رائحة "السفنج" المقلي في الزيت الساخن، والتي تعبق في أزقة الحي كل مساء كبخور شعبي، إلى مبتغاي. وبمجرد أن أديت هذه "الضريبة" المنزلية وعدت بالكيس الورقي المشبع بالزيت، حصلت على صمت يبيح لي الخروج مجدداً، والأهم: احتفظت بدرهمين في جيبي كعمولة صامتة لجهودي.
في زحمة الزقاق، لاحت لي هيئة موحى عائدا من "الفيلاج". كان وجهه يحمل استرخاءً عجيباً لم أعهده فيه منذ بداية الأزمة. خطوطه المتشنجة لانت، وعيناه تلمعان ببريق هادئ يعكس شمس الأصيل. لم نكن بحاجة لكثير من الكلام لنتفق على وجهتنا التالية؛ فالدرهمان في جيبي كانا بمثابة تذكرة عبور نحو عالم آخر.
قصدنا بخطوات متسارعة "السيبير" (مقهى الإنترنت) في حي التجزئة. استقبلتنا عتمة المكان، ورائحة الغبار الممزوجة بحرارة الحواسيب المكتظة، وصوت نقرات "الماوس" المتسارعة كزخات المطر. بفضل ألفتي البسيطة مع حاسوبنا المنزلي، كنت أتحرك بين النوافذ ببراعة أثارت فضول موحى الذي كان يراقب الشاشة بانبهار صامت.
استقرينا أمام منصة "يوتيوب"، نتابع تلك السلسلة الكرتونية المغربية التي كانت حديث الشارع آنذاك؛ شخصية نحيلة فوضوية تسخر من كل شيء بدارجة لاذعة. تعالت ضحكاتنا المكتومة حتى دمعت أعيننا. كانت تلك الضحكات الصافية، الرنانة، التي تخرج من أعماق صدر موحى، تزن عندي الدنيا وما فيها. لقد كان يضحك كأي طفل عادي، بعيداً عن حسابات الهندسة، وعلب الفازلين، ورعب الفقدان.
لفظنا "السيبير" بعد انقضاء نصف ساعة ـ هي كل ما يمنحنا إياه الدرهمان ـ لنجد أنفسنا في طريق العودة نمر بساحة "عين الغيس" الترابية..

هناك، وسط غبار اللعب وصياح الأطفال، كان "سعد" يقف متبختراً بكرته الجلدية الجديدة الحقيقية. كانت ثيابه النظيفة تفضحه كمن يستعرض غروره بامتلاكها، أكثر مما يستمتع باللعب الفعلي. وفي غمرة الركض، وباحتكاك عفوي من أحد المدافعين، أسقطه أحد الأولاد أرضاً.

تدحرج سعد في التراب. وبدل أن يقف ليكمل اللعب كبقية الصبية الذين ألفوا كشط الركب، انتفض مجنوناً. نفض الغبار الوهمي عن سرواله المستورد بحركة هستيرية، التقط كرته الجلدية وضمها إلى صدره، وصرخ بحقد وغرور معتاد: «والله لا لعبت معاكوم! يالاه!»

أدار ظهره وتوجه نحو بيته، غير آبه بتوسلات الأطفال البائسين الذين توقفت مباراتهم في منتصفها لغياب الكرة.

وقفتُ أنا وموحى نراقب المشهد من بعيد. ابتسم موحى ابتسامة هادئة، وعادت إليه ملكة التحليل الفلسفي التي لا تظهر إلا في لحظات صفائه الذهني.

نظر إلى ظهر سعد المبتعد، وهمس لي بصوت يحمل حكمة تتجاوز سنواته القليلة: «شفتيه أ معاد؟ راه خاوي من لداخل.. ديك الكرة هي الحاجة الوحيدة لي كتخليه يحس براسو مهم بين الدراري.»

عوضنا غياب الكرة الجلدية وفراغ الساحة بإخراج "اللّبّي" (الكللٍ الزجاجية الملونة) من جيوبنا الممتلئة، والتي كانت تصدر رنيناً زجاجياً محبباً مع كل خطوة.

بأعقاب أحذيتنا البلاستيكية، حفرنا حفرة صغيرة في التراب المندي، وانغمسنا فوراً في طقوس اللعبة. تعالت أصواتنا بكلمة "زبح" (ورقة، حجرة، مقص) لتحديد أدوار الرمي. تلطخت أيدينا بالتراب، وكشطت ركبنا، وتعالت صيحاتنا في نشوة طفولية خالصة، أنستنا كيف يتسرب الوقت من بين أصابعنا كما يتسرب تراب الساحة. لم ننتبه للشمس التي انسحبت بهدوء خلف جبل "بويبلان"، ولا لزحف خيوط الظلام الأولى التي بدأت تبتلع ملامح "عين الغيس".

وفجأة، انتزعني من سكرتي شبحٌ مألوف يشق عتمة الساحة بخطوات صارمة.
تسمرت عيناي. كانت أمي! تقف عند ناصية الزقاق، تضع يديها على خصرها وتتفحص الوجوه الصغيرة في العتمة. أدركت فوراً، وببرودة سرت في عمودي الفقري، أنني تجاوزت كل الخطوط الحمراء للوقت المسموح. ألقيت توصيتي العاجلة والمتهدجة للأولاد ولموحى بالتستر على غيابي: "إلا سولاتكوم، قولو ليها مشيت شحال هادي!" أطلقت لساقي العنان من الجهة المعاكسة للساحة، أتلوى بين الأزقة الضيقة كطيف هارب، أقفز فوق البرك المائية لأسبقها إلى البيت قبل أن تكتشف جريمة تأخري.
تجاوزت عتبة الدار بخطوات لاهثة، قلبي يقرع كطبل إفريقي. ارتميت على الأريكة في الصالة، والتقطت جهاز التحكم مشعلاً التلفاز، متظاهراً بأنني لم أبرح مكاني قط. كانت قناة "سبيستون" تعرض اللحظات الأخيرة من كرتون "دراغون بول"، لتتوالى بعدها تلك الإشهارات التي كنا نحفظ تفاصيلها بشغف.
وما إن ظهر الشعار الأيقوني مصحوباً بالصوت الرخيم: "سبيستون.. قناة شباب المستقبل"، حتى انطلقت شارة البداية التي ننتظرها. صدح المنشد بأعلى صوته: "الكابتن ماجد.. بطلُ الملعب!"...
تزامنت تلك الكلمات حرفياً، وبمفارقة سينمائية ساخرة، مع دوي خطوات أمي الثقيلة والغاضبة وهي تصعد درجات السلم الإسمنتي. كان البطل يركض في الملعب على الشاشة، وأنا أرتعد في مكاني على الأريكة، بينما صوت أمي يسبقها، متوعدة إياي بالويل والثبور لغيابي الطويل.
حين فتحت الباب، تصنعتُ الألم فوراً. أمسكت بطني، أئنّ وأتقلب على الوسائد كبطل تراجيدي. لكن أمي، بخبرة محقق متمرس، وقفت فوق رأسي. رمقت حذائي الذي لا يزال يحمل آثار تراب "عين الغيس"، ونظرت إليّ بنظرة لا تخلو من سخرية ووعيد قائلة: «نوض تكعد من تما.. ما غانضربكش دابا، غانتفاهم معاك من بعد!»

تركتني أتقلب في قلقي وتوجهت نحو المطبخ
بعد دقائق مرّت كالدهر، ساقني العطش وجفاف حلقي من الركض لأتسلل خلفها نحو المطبخ. لكنني تسمرت فجأة بالقرب من إطار الباب الموارب.
كانت أمي تقف بجوار "السرجم" (النافذة المطلة على الزقاق الداخلي)، تتبادل أطراف الحديث بصوت خافت مع الجارة. لم ألتقط سياق الحديث في البداية، لكن الجملة الأخيرة التي نطقتها الجارة سقطت على مسامعي كالصاعقة؛ واضحة، حادة، ولا تقبل التأويل: «إيوا شفتي على خبار.. راه باه غايرجع السيمانة الجاية من بعد هاد الغيبة كاملة!»
ردت أمي بصوت يحمل مزيجاً من الشفقة والاستنكار: «الله يحسن عوان ديك المْرا، مريضة ومكرفسة، وهو عاد بان ليه يرجع!»
تجمدت يدي الممتدة نحو كأس الماء.
"باه راجع"؟ هل كانتا تتحدثان عن والدٍ موحى؟! كيف يعود من ابتلعه الموت؟ ألم يخبرني موحى مراراً، والدموع تملأ عينيه، أنه رحل بلا عودة؟ ألم نرثِ يُتمه معاً؟ هل كان يكذب عليّ كل هذا الوقت؟ أم أن عقله الصغير والمنهك اختلق أسطورة الموت ليهرب من حقيقة أشد مرارة: حقيقة أبٍ تخلى عنهم وترك أمه تصارع الموت وحيدة؟ أم تراها تتحدث عن شخص آخر في نسيج حيّنا المتشابك؟
أردت اقتحام المطبخ لانتزاع الحقيقة من فم أمي، لكنني كنت سجيناً تحت إيقاف التنفيذ، وأي حماقة الآن ستعجل بالعقاب وتفضح تنصتي.
تراجعت إلى غرفتي بخطوات لا أسمع لها صوتاً. جلست على حافة السرير في العتمة، وعقلي يغلي بأسئلة بلا إجابات. في تلك اللحظة، أيقنت بطفولتي المصدومة، أن ما عشناه من مآسٍ مع موحى، من جوعٍ، وعلب فازلين، وهروبٍ من القسم، لم يكن سوى قشرة رقيقة جداً، تخفي تحتها أسراراً عائلية أعمق وأكثر سواداً بكثير.

الفصل السابع

عهدٌ لم تلمسه الأعين

كانت جملة أمي المبتورة — "باه راجع السيمانة الجاية" — تتأرجح في فراغ غرفتي المظلمة كبندول ساعة حديدية لا ترحم. تذهب وتجيء، وتضرب جدران رأسي الصغير بأسئلة تفوق قدرتي على الاحتمال. بقيتُ أتقلب في فراشي، أضم الغطاء الصوفي إلى ذقني، وأسترق السمع لزمجرة الريح الخريفية في الخارج وهي تصفع النوافذ الخشبية، بينما أصارع في الداخل شكوكاً كادت تخنقني.

هل يعود الموتى من غيابهم الطويل؟ أم أن حياة موحى، بكل تفاصيلها الموجعة، ويُتمه الذي أبكاني، لم تكن سوى كذبة كبرى نُسجت خيوطها لستر عورة أب هارب؟

وحين زحفت خيوط شمس الأحد الشاحبة نحو التاسعة صباحاً، متسللة من شقوق النافذة لترسم خطوطاً مضيئة على سجاد الغرفة، كان ثقل ذلك السر قد استنزف كل قدرتي على التظاهر بالصبر. تسللت من دفء فراشي حافي القدمين. تحسست برودة بلاط الأرضية "الموزاييك"؛ تلك البرودة التي تسربت ببطء من باطن قدمي إلى عظامي، لتعمق قشعريرة القلق في داخلي.

انسقتُ خلف رائحة النعناع الطازج التي عبقت في الممر، تقودني بخطى مترددة، صامتة، نحو المطبخ.

هناك، كانت أمي تقف في زاويتها المعتادة. الإضاءة الصباحية الخافتة تضفي على المشهد هدوءاً خادعاً. كانت تقف أمام الفرن الغازي، بينما يَتراقص لهب أزرق خافت من "البوطة" الصغيرة المجاورة له. كان إبريق الشاي الفضي يتربع فوق النار في طمأنينة تامة، ينفث بخاره الأليف، ويوشوش في هواء الصباح البارد بصوت غليان خفيف يشبه همهمة نائمة.

وقفتُ خلفها بقلب يرتجف بين ضلوعي. وببراءة طفولية اصطنعتها بعناية لأداري هول ما تنصتُّ إليه البارحة، رميت سؤالي وكأنه حجرٌ ألقيتُ به في بركة صمتها الراكدة: «مي.. واش بصح باين موحى غايرجع؟»
توقفت الكاميرا عند يدها. توقفت يدها التي كانت تحمل باقة النعناع في منتصف المسافة نحو الإبريق. التفتت إليّ ببطء. رمقتني بنظرة استغراب صافية، سرعان ما ذابت وتغيرت ملامحها لتتحول إلى شفقة خفية؛ تلك الشفقة الثقيلة الخاصة بالكبار، حين يعرفون قسوة الحقائق ويضطرون لسكبها على رؤوس الصغار.

تنهدت بصوت مسموع زاحم صوت غليان الإبريق، وأجابت بصرامة حنونة أذابت كل أوهامي دفعة واحدة: «باه ديال موحى؟ الله يرحمو ويوسع عليه أ ولدي.. السيد هادي سنين منين كلاه التراب. أنا البارح كنت كنهضر مع جارتنا على 'بوشتى' مول الحانوت لي كان غابر فالخارج!»
انزاح جبل من الشك عن صدري، لكنه لم يترك وراءه فراغاً مريحاً، بل ترك حفرة عميقة من الحزن الموحش.
موحى لم يكن يكذب إذن. والده مات فعلاً. وتلك الحقيقة الباردة كصقيع جبال "بويبلان" التي تحرس بلدتنا، كانت تعني شيئاً واحداً لا لبس فيه: صديقي سيواجه هذا العالم القاسي يتيماً إلى الأبد. لا معجزة في الطريق، ولا أب سيعود من الغيب في اللحظة الأخيرة، كأبطال الروايات، لينتقم له من ظلم الأيام، أو ينتشله من براثن الحاجة وعلب الفازلين.

في تلك اللحظة، أمام بخار الشاي ورائحة النعناع، أدركت بوعي مبكر ومؤلم، أن قدر موحى قد حُسم، وأن عليه أن يحفر طريقه بأظافره المجروحة في صخر هذه الحياة العارية.

مر يوم الأحد ثقيلاً، لزجاً، ومشبعاً بصمتي وتأملاتي. وما إن أشرقت شمس الإثنين، معلنةً أول أيام "العطلة البينية"، حتى أدركنا أن وقت العمل الحقيقي قد حان. بالنسبة لنا، لم تكن العطلة تعني النوم المتأخر أو اللعب في الأزقة، بل كانت تعني ببساطة، تغيير جبهة المعركة.

حملت لنا تلك الصبيحة الباردة صخب "سوق الإثنين" الأسبوعي. لم يكن هذا السوق بالنسبة لنا مجرد مساحة ترابية واسعة لتبادل السلع؛ بل كان كائناً حياً، وحشاً خرافياً يتنفس، يزأر، ويبتلعنا في جوفه الموحل منذ ساعات الصباح الباكر ليعلمنا أبجديات البقاء القاسية.

بمجرد أن وطئنا مدخله، غمرت حواسنا تلك الخلطة العجيبة: روائح النعناع الطازج المكدس في مؤخرة الشاحنات، ممزوجة برطوبة التراب المبلل بندى الفجر، وروث البهائم، وعرق الفلاحين الملتحفين بجلابيبهم الصوفية الثقيلة. كان زعيق الباعة يختلط بنهيق الحمير، وأصوات محركات "البيكوبات" المتهالكة، والموسيقى الشعبية المنبعثة من مسجلات باعة الأشرطة، ليشكل سيمفونية فوضوية تصم الآذان.

وسط هذا الخضم الهائج، وتحت سماء خريفية متقلبة، افترشنا أنا وموحى ركننا الصغير على قارعة الطريق.

بَسَطْنا قطعة كرتون بنية متهالكة. راقبتها وهي تمتص رطوبة الأرض الطينية ببطء لتتحول حوافها إلى لون داكن. لم نجلس لنبيع الخضر، أو الملابس المستعملة، أو الأواني كما يفعل كبار السوق، بل كنا نتاجر في شيء مجرد تماما.. كنا نتاجر في "الوقت والمسافات".

كنا نبيع بطاقات التعبئة الهاتفية، وإلى جانبها صففنا بعناية مجموعة من "شرائح الاتصال"؛ تلك القطع البلاستيكية الصغيرة، الحمراء والزرقاء، التي كانت بمثابة تذاكر عبور سحرية نحو عالم الهواتف المحمولة الذي بدأ للتو يغزو دروبنا وعقول الناس.

تقاسمنا الأدوار باحترافية فرَضتها الحاجة. كانت مهمة موحى، بذهنه الرياضي الحاد الذي شحذته قسوة الأيام، حساب القطع النقدية وإرجاع الصرف. كانت أصابعه المجروحة والمغطاة بطبقة خفيفة من التراب تتحرك بين الدراهم ببراعة وسرعة لا تخطئ، يفرزها ويرتبها فوق راحة يده وكأنه آلة حاسبة بشرية لا تكل.

بينما كنت أنا "رجل المبيعات". أقف على أطراف أصابعي لأبدو أطول قامة بين الجلابيب الخشنة للمارة، أستقطب الزبائن بصوتي الطفولي الحاد الذي يشق ضجيج السوق: "التعبئة أعمي.. كاين ميديتيل.. كاين اتصالات!" كنت أجادل الفلاحين ذوي الوجوه المجعدة بجرأة لا تتناسب أبداً مع قصر قامتي، وأقنعهم بشراء شريحة اتصال من عندنا ونحن نقف في الوحل، بدل الذهاب إلى المتاجر المضاءة في وسط البلدة.

كانت حركة السوق لا تهدأ، والغبار يتطاير من تحت الأحذية البلاستيكية ليلتصق بوجوهنا الصغيرة، لكننا كنا نقف هناك، كجنديين صغيرين يحرسان ثروتهما الورقية، في انتظار لحظة هدوء ستغير نظرتي للأشياء إلى الأبد.

في لحظة هدوء نادرة ظهيرة ذلك اليوم، انسحب فيها زحام الزبائن هرباً من شمس الخريف التي بدأت تلسع الظهور، جلستُ القرفصاء فوق كرتوننا المبلل.

أنزلتُ بصري أراقب يديّ الصغيرتين الملطختين بذلك الغبار الفضي اللامع المتطاير من حكّ بطاقات التعبئة. التقطت إحدى شرائح الاتصال "الكارطة" وتأملتها طويلاً؛ كانت مجرد قطعة بلاستيكية خفيفة الوزن، رخيصة الملمس، تتوسطها مربعات نحاسية صغيرة لا يتجاوز حجمها عقلة الإصبع.

رفعت عيني نحو موحى. كان يجلس بجانبي، يجمع دراهم معدنية قليلة ويرتبها فوق راحة يده بسعادة غامرة. يمسح أنفه السائل بكم معطفه الكبير عليه بحركة لاإرادية، بينما حذاؤه البلاستيكي الممزق من الأمام يكاد لا يستر أصابع قدميه المتجمدة من طين السوق.

وبطريقة لم أفهمها حينها، استوقفني شيء غريب، تناقض صارخ أيقظ شيئاً ما في داخلي. نظرت إلى الدراهم المعدنية الثقيلة في يده، ثم إلى الشريحة البلاستيكية الخفيفة في يدي، وانقدح في عقلي الصغير وميضٌ تجاوز حدود ذلك السوق الطيني.
ناديت عليه بصوت خافت، كمن اكتشف للتو لغزاً رياضياً معقداً:
«موحى.. واش عمرك رديتي البال لواحد الحاجة فشكل كنديروها؟»
رفع رأسه منقحاً دراهمه، ونظر إليّ باستغراب متسائلاً وعيناه تلمعان تحت الشمس: «شنو؟»
أشرت بيدي الملطخة بالفضة نحو البطاقات والشرائح المتناثرة على الكرتون المبلل: «شوف هاد الكارطة وهاد البلاستيكة.. راه ما ساويين حتى ريال فالحقيقة! الناس كيعطيونا فلوس حقيقية وكيوقفو فهاد الغيس والبرد، غير على قبل داك الرقم لي مخبي لداخل.. حنا أ موحى كنبيعو ليهم غير أرقام ما كتشافش!»
ضحك موحى ضحكة مجلجلة خرجت من أعماق صدره المتعب، ومسح الغبار عن جبهته قائلاً ببراغماتية طفل جائع لا يعترف بالفلسفة: «إيوا ومن بعد؟ المهم راه كيجيبو لينا الصرف!»
لكن الفكرة كانت قد تملكتني. زحفت نحوه على ركبتي فوق الكرتون المبلل، والغبار الفضي يلمع على أصابعي تحت أشعة الشمس، وقلت بحماس طفل رأى فجأة طريقاً سرياً للخلاص:
«تخيل أ موحى كون كنا حنا لي كنصنعو هاد الأرقام؟ تخيل يجي واحد النهار.. نوليو بحال داك المليارديرلي شفت فالتلفازة، غنبيعو حوايج بحال هكا، حوايج ما كتقاصش باليد، بحال داكشي لي كنشوفو فالسيبير! والناس من المدن كاملة غتجي تشريها من عندنا.. وما غنبقاوش نوقفو فهاد السوق، وما غايضربنا لا شمش ولا شتا... وماشي غير حنا أ موحى! غنوليو نعاونو كاع هاد الناس لي كايبيعو معانا فهاد الغيس، غنفرقو عليهم الفلوس وما نخليو حتى واحد يحتاج يبيع ويشري فهاد البرد.»

ابتسم موحى بتعب هذه المرة. كانت ابتسامة صافية، حزينة، ومتسامحة مع خيالي المحلق الذي لم يأخذه على محمل الجد. مد يده الخشنة وربت على كتفي، وكأنه يوقظني من حلم جميل ليعيدني إلى قسوة الطين، وقال بصوت هادئ: **«الله اودي أ معاد.. يالاه نوض نغوتو ونبيعو هاد الجوج لي بقاو قبل ما يخوا السوق.»**

نهضت، أنفض التراب عن ركبتي، وأنا أداعب شريحة الهاتف النحاسية بين أصابعي داخل جيبي، وعقلي الصغير يغلي بالأسئلة. لم أكن أدرك في تلك السن المبكرة أن محاولتي الطفولية لفهم كيف يدفع الناس المال مقابل "أشياءٍ غير مرئية"، كانت في الحقيقة بذوراً أولى لما سيُعرف لاحقاً في عالم الكبار بـ "الاقتصاد الرقمي". كل ما كنت أعرفه حينها، هو ذلك العهد الصامت الذي قطعته في قرارة نفسي أمام يتيم لا يملك من الدنيا سوى دراهم معدودة.. عهدٌ بأن الخروج من قسوة ذلك الوحل، والنجاة من برودة ذلك السوق، لا يجب أن يكون خلاصاً فردياً وأنانياً. بل يحتاج إلى بناء شيء أكبر بكثير.. شيء لا يمكن للفقر أن يلمسه لأنه ببساطة لا يُرى بالعين، لنجعله طوق نجاةٍ لنا، ولكل الأيدي المتعبة التي شاركتنا صقيع ذلك الصباح.

الفصل الثامن

صحوة الموت.. والتابوت البلاستيكي

لم يمهلنا شتاء ذلك العام طويلاً لنتعافى من قسوة الخريف.
زحف زمهرير جبل "بويبلان" مبكراً هذا العام، ليهبط من قممه البيضاء ويلفّ دروب بلدتنا بوشاح من الصقيع الجاف الذي يشقق الشفاه ويجمد الأطراف. وببرودة تامة، كطبيعة ذلك الثلج القاسي، اغتال ذلك الشتاء الوهم الجميل الذي عشناه أنا وموحى في أواخر الخريف.
كنا نظن، بسذاجة الأطفال وتوقهم اليائس لانتزاع أي لحظة فرح، أن "خالتي ميّانة" قد انتصرت أخيراً على علتها التي أنهكتها. فبعد أسابيع ثقيلة ولزجة قضتها طريحة فراش صوفي متهالك في زاوية الغرفة، توقف فجأة ذلك السعال الجاف، المبحوح، الذي كان يمزق سكون الليل ويُدمي قلوبنا الصغيرة نحن الذين نسترق السمع من خلف الأبواب.
في تلك الأيام القليلة الخادعة، حدثت المعجزة التي صدقناها. عاد بعض الدم ليلوّن وجنتيها الغائرتين والشاحبتين كأوراق الخريف المتساقطة. استعادت يداها الخشنتان، اللتان نحلتا حتى برزت عروقهما الزرقاء، قدرة مؤقتة وعجيبة على الحركة ومداعبة الدقيق وعجن الخبز.
تغير هواء الزقاق فجأة. بتنا نشم مجدداً رائحة "الخميرة البلدية" الحامضة والدافئة تنبعث من عتبة بابهم الحديدي، لتطرد وللأبد —كما توهمنا— تلك الرائحة الكئيبة للأعشاب المغلية، وزيوت الكافور، وعرق المرض التي زكمت أنوفنا طويلاً.

كانت تلك الفسحة العابرة من العافية تملأ عيني موحى ببريق أمل جديدٍ، بريق لم أره فيه منذ زمن. انفرجت أساريره المتشنجة دائماً، وصار يضحك بصوت أعلى في الساحة، يركض بخفة، وكأن جبل "بوييلان" بأسره قد انزاح عن صدره النحيل.
لكننا لم نكن نعلم، نحن الصغار الذين نجهل مكر الأقدار وقوانين الأجساد المنهكة، أن تلك الفسحة لم تكن انتصاراً على المرض.. لم تكن سوى "صحوة الموت".. التوهج الأخير، الساطع والمخادع للمصباح، قبل أن يحترق فتيله دفعة واحدة ويستسلم للظلام الأبدي.

لكن تلك الفسحة تبخرت سريعاً. عاد المرض مع أولى ليالي دجنبر القارسة، غير أنه هذه المرة لم يطرق الباب مستأذناً، بل اقتحم الجسد المنهك كعاصفة ثلجية عمياء لا تُبقي ولا تذر. عاد السعال يمزق الصدر، ومعه حمى مسعورة تذيب اللحم المتبقي عن العظم.
وفي صباح يومٍ كئيب، تلونت سماؤه برماد ثقيل، وتوحلت أرضه بفعل رذاذ مطر ليلي بارد، خرجتُ أحمل محفظتي. وقفت عند ناصية الزقاق أنتظر موحى كعادتي، أفرك يديّ وأنفخ فيهما، لكنه لم يخرج.
انقبض قلبي فجأة. انكمشت معدتي، وساقني حدس مبهم ومخيف نحو بيتهم. كانت خطواتي على الإسفلت المبلل ثقيلة على غير العادة، وكأن جاذبية الأرض قد تضاعفت لتجذبني من كاحلي إلى الأسفل.
ما إنِ اقتربت، حتى رأيت الباب الحديدي الصدئ مواربا. لم يكن مغلقاً كما يجب أن تكون الأبواب في هكذا برد. دفعته بيدي المرتجفة، فاستقبلتني موجة خانقة صَفعت وجهي الصغير؛ مزيج مرعب ومتناقض من رائحة الكافور النفاذة،

وعبق الصوف المبلل، وعطر الموت الجنائزي البارد الذي لا تخطئه حتى أرواح الأطفال الغضة.
كانت الغرفة الصغيرة، نصف المظلمة، تغص بنساء الجيران اللواتي توافدن على عجل. لم يكن هناك لون أسود موحد للحداد كما نرى في التلفاز؛ بل كانت جلابيبهن اليومية المتباينة الألوان، وأغطية رؤوسهن التي عُقدت كيفما اتفق في لحظة الفزع، ووجوههن المكدودة المجرّدة من أي زينة.. هي الحداد بحد ذاته.
وفي الوسط تماماً، حيث اختفت الحصيرة البلاستيكية، وتحت غطاء صوفي مخطط ابتلعت الأيام ألوانه الباهتة، رقدت "خالتي ميّانة" في سكونها الأخير.
تسمرت في مكاني عند عتبة الباب. شعرت بهواء الغرفة الثقيل، المشبع بأنفاس النساء وباكية الفقد، ينسحب من رئتي دفعة واحدة. تداخلت أمامي تلك الوجوه الشاحبة المتراصة، وتحول نشيج النساء ونواحهن المكتوم إلى طنين مزعج، يتردد في تجويف رأسي كصدى أجراس صدئة تُقرع في بئر عميقة.
بدأت الجدران المتقشرة بطلائها الأخضر الباهت تدور بي في دوامة مجنونة. تلاشت ملامح الغرفة وراء سحابة سوداء كثيفة ابتلعتني بالكامل، ولم أشعر بجسدي الصغير وهو يهوي ليرتطم بالأرضية الإسمنتية الباردة.
لا أدري كم مر من الوقت وأنا غارق في تلك العتمة الرحيمة التي أنقذتني من مشهد الموت. لكن، أول ما اخترق حواسي وأعادني بصفعة قاسية إلى الواقع، كانت رائحة لاذعة، حارقة، ونفاذة، اقتحمت خياشيمي بقسوة لتوقظ دماغي.
كانت رائحة نصف بصلة مكسورة، ممزوجة بقطرات من الحامض (الليمون)، قُربت من أنفي لدرجة الاختناق.

فتحت عيناي بصعوبة، لترتسم أمامي، كصورة مشوشة تتضح تدريجياً، وجوه نساء الجيران يتحلقن حولي بملامح مجعدة لوحتها قسوة الأيام. كانت إحداهن تمسح على رأسي بيد خشنة تفوحٍ منها رائحة الحناء القديمة، وتتمتم بصوت متهدج، يقطر حناناً يشبه حنان أمي: «بسم الله عليك أ وليدي.. بسم الله عليك.. ماتخلعش أ وليدي، ماتخلعش.»
حاولت الاعتدال، فأسندتني أذرعهن الدافئة. كانت رائحة البصل والحامض التي استخدمنها لإفاقتي لا تزال تعبق في أنفي، تتصارع بشراسة مع رائحة الكافور الثقيلة الملتصقة بالجدران. وبمجرد أن استعدت توازني ووعيي بالكامل، عاد كابوس الحقيقة ليصفعني من جديد.
التفتت عيناي المذعورتان تبحثان عنه... أين موحى وسط هذا الزحام الغريب؟

لم يكن يبكي. لم يكن يندب أوٍ يمرغ وجهه في التراب كبقية الأطفال المفجوعين. كان منزوياً في أبعدٍ وأعتم ركن من تلك الغرفة المظلمة. يجلس القرفصاء، ضاماً ركبتيه النحيلتين إلى صدره، ويسند ظهره إلى الحائط الإسمنتي البارد، مبتلعاً صدمة الخذلان المهولة التي تفوق طاقة جسده الضئيل.
تجرجرت خطواتي نحوه ثقيلة، متهالكة، وكأن أثقال الدنيا قد حطت رحالها فجأة على كاهلي الغض. كنت أتقدم في تلك العتمة الخانقة، أتحاشى بكل ما أوتيت من جبن الطفولة، استراق النظر إلى ذلك الجسد المسجى وسط الغرفة. هبطتُ ببطء، بقلب يرتجف، لأجلس بجانبه على تلك الحصيرة البلاستيكية الباردة التي فقدت لونها.

لم يلتفت إليّ. لم يرمش له جفن. ظلت عيناه مسمرتين في فراغٍ الغرفة الكئيب، جاحظتين بلا دمع، تحملان انكساراً مهولاً، وفراغاً شاسعاً أكبر من أن يستوعبه عقل طفل.
وفي خضم تلك العتمة الموحشة، انتبهت ليديه. لاحظت أن أصابعه الصغيرة المرتجفة بقوة، كانت تقبض بشدة يائسة، تتشبث كغريق، بشيء مألوف جداً.. علبة الفازلين البلاستيكية الزرقاء.
نعم، إنها تلك العلبة البائسة ذاتها التي طالما رافقته كظله. كيف أنسى ذلك الصباح المشؤوم في قاعة الدرس، حين طعن "سعد" في شرفها، وكيف انبرت "زينب" لتكشف الحقيقة المرة: أن تلك الدراهم القليلة لم تكن سوى ثمن عرقه، جمعها قرشاً إثر قرش من بيع الخردة الصدئة، كي يشتري بها حياة أفضل لـ "خالتي ميّانة".
كنت أعرف يقيناً، كما كان هو يعرف في قرارة نفسه الممزقة، أن تلك العلبة لم تكن تحتوي فقط على دراهم الخردة الباردة. بل كانت تخبئ في قعرها ذلك السر الموجع... "نصف التذكرة" الورقية الزرقاء.

كان يضم العلبة إلى صدره، يضغط عليها بقوة وكأنها قلبه الذي انتُزع من بين أضلاعه للتو. وهنا، كان يتجلى أقسى ما في هذا الابتلاء، تلك المفارقة القاسية التي كانت تذبحه في صمت مطبقٍ: لقد بقيت دراهم الخردة في مكانها، وبقي نصف التذكرة صامداً لم يتبلل ولم يتمزق، بينما رحلت، وإلى الأبد، تلك التي من أجلها تجرع كل هذا الشقاء. لقد باتت العلبة الآن بلا معنى؛ تحولت بين أصابعه إلى مجرد تابوت بلاستيكي صغير، يُشيع فيه أحلامه التي وُئدت قبل أن ترى النور.

مددت يدي المترددة، ووضعتها بخفة على كتفه النحيل الذي كان يرتعد بانتفاضات صامتة ومكتومة. حينها فقط، انفرط عقد تماسكه الموهوم؛ فلمحت دمعة يتيمة، حارقة وثقيلة كقطرة رصاص مذاب، تنزلق ببطء قاتل على خده المتسخ بغبار اليتم وتعب الأيام.

لم أنبس ببنت شفة. ففي حضرة الموت، وتحت أنقاض الأحلام المنهارة، انعقد لساني الطفولي القاصر، وبدت لي كل الكلمات عاجزة، بل وسخيفة، أمام جرح بهذا العمق. فاكتفيت بصمتي ودموعي أواسيه بها في مصابه الجلل.

في تلك اللحظة، وتحت سقف تلك الغرفة الباكية، أدركت حقيقة مرعبة أثقلت كاهلي الصغير كجبل: موحى لم يعد مجرد ذلك الطفل الفقير الذي يرافقني لبيع البطاقات. لقد سقط عنه اليومٍ آخر درع كان يَقيه قسوة هذا العالم المتوحش. أصبح الآن "يتيماً بالكامل".. ورقة خريفية عارية، ومشرع الأبواب أمام نهش البشر وأطماع ذوي القربى.

ولم أكن أعلم حينها، بحدسي الطفولي القاصر، أن تلك العلبة البلاستيكية بالذات، بكل ما تحمله من دراهم و"نصف تذكرة"، ستكون هي خنجر الخيانة الذي سيعمق جراحه، والسبب في نزيف غائر لن يندمل أبداً، حين تمتد إليها يد القسوة في قادم الأيام المظلمة.

الفصل التاسع

غربان العش المكسور.. وخيانة العلبة

لم يكن الموت وحده هو ما يثير الرعب في النفوس، بل ما يعقبه من طقوس تكشف عورات الأحياء.

بمجرد أن أسلمت "خالتي ميّانة" الروح، تحولت الغرفة الكئيبة، التي هجرها الجميع في أيام المرض الطويلة، إلى محجّ يعج بحركة غريبة. ومثل غربان جائعة تجمعت حول عش مكسور، ظهر فجأة أقارب لم نرَ وجوههم قط طيلة أشهر العذاب والجوع و"علب الفازلين".

كان على رأسهم "العم المختار". رجلٌ ضخم الجثة، يرتدي جلباباً صوفياً رمادياً لا يحمل أثراً لغبار الطريق، يسبقه تنحنح خشن ومسبحة غليظة تتدلى من يده. دخل الغرفة بخطوات واثقة، لم ينظر إلى جثمان زوجة أخيه المسجى، ولم يمسح على رأس ابن أخيه اليتيم المنزوي في العتمة، بل جالت عيناه الثعلبيتان في أرجاء الغرفة المتهالكة، تتفحصان الجدران المتقشرة والسقف الخشبي كأنه سمسار عقارات يقيّم بضاعة رخيصة، لا أخٌ مفجوع جاء ليواسي.

كانت كلماته الأولى، التي تصنع فيها نبرة الحزن، موجهة لرجال الحي: «الله يرحمها.. كانت مرا صابرة، والدوام لله. إيوا، إكرام الميت دفنه أ الخوت!» في ظهر ذلك اليوم الشتوي، القارس والمشبع برطوبة الأرض، رفع الرجال النعش الخشبي. كان الخشب يصر بصرير كئيب مع كل خطوة يغوص فيها حذاء بلاستيكي في وحل الزقاق.

كنت أمشي خلف النعش بخطواتي الصغيرة، أراقب ظهر موحى. كان يرتدي معطفاً أكبر من مقاسه بكثير، ابتلع عنقه الهزيل. لم يكن يبكي بصوت مسموع، لكن كتفيه كانا يرتجفان مع كل هبة ريح باردة تصفع وجوهنا. كان يسير كآلة معطلة، مخدراً تماماً، يداه مدسوسة في جيوب معطفه، وأنا أعلم يقيناً، كما أعلم اسمي، أن أصابعه المتجمدة كانت تعتصر في جيبه تلك العلبة البلاستيكية الزرقاء، كأنها الحبل السري الأخير الذي يربطه بأمه التي تُحمل أمامه نحو التراب.

وصلنا إلى مقبرة "تيزي العدني" العارية، حيث تتناثر الشواهد الحجرية غير المنتظمة بين الأعشاب الشوكية المبللة. رائحة التراب النديّ المختلط بعفن الجذور القديمة كانت تزكم الأنوف. وهناك، أمام تلك الحفرة المستطيلة الباردة، وقف موحى يراقب الجسد النحيل وهو يُنزل إلى العتمة الأبدية.

حين أُهيل التراب المبلل، وسقطت أولى الحجرات بقرقعة مكتومة على الألواح الخشبية التي تغطي اللحد، شعرت بقلبٍ موحى يسقط معها. التفت إليّ للحظة، وكانت نظرته فارغة تماما؛ نظرة طفل سُرق منه العالم بأسره، ولم يتبق له سوى جيب مثقوب، وعلبة فازلين زرقاء.. وعمّ يراقب الموقف من بعيد بعينين لا تعرفان الرحمة.

عدنا من المقبرة تاركين وراءنا جسداً يلتصق بطين الأرض الباردة، لندخل إلى بيت يعج بضجيجٍ الأحياء ونفاقهم.

تبدلت رائحة البيت تماماً. اختفى عبق الكافور القابض للصدر، وطردته رائحة ثقيلة، دسمة، وخانقة.. رائحة "الكسكس باللحم والسمن الحار"، التي تسللت من مطابخ الجارات لتملأ الفناء الضيق. تحولت غرف البيت الكئيبة، بين عشية وضحاها، إلى صالة طعام كبيرة تُقام فيها "الصدقة".

كنت أجلس بجوار موحى في زاوية ضيقة، نراقب المشهد
كغريبين في مسرحية عبثية. كانت الأيادي تمتد بنهم نحو القصاع
تتخاطف قطع اللحم ،(الأطباق الكبيرة المصنوعة من الفخار)
المطهو، وتصنع كرات الكسكس الدسمة لتبتلعها بسرعة، بينما
.تتعالى أصوات المضغ وارتشاف كؤوس الشاي المنعنع الساخن
كان التناقض يذبحني؛ كيف يمكن للبطون أن تجوع وتأكل
بشراهة، بينما هناك طفلٌ جالس بينهم، عجز حتى عن ابتلاع ريقه
من فرط الغصة؟
وفي صدر المجلس، متربعاً على وسادة حمراء، كان يجلس "العم
".المختار
كان يلوك لقمته الكبيرة ببطء، يتلمظ بشفتيه اللامعتين بدسم
.المرق، ويوزع نظرات الرضا على الحاضرين وكأنه صاحب فضل
بين الفينة والأخرى، كان يمسح شاربه الغليظ بظهر يده، ويُطلق
تنهيدة مصطنعة، متمتماً بصوت جهوري ليسمعه الجميع: «إيوا
الله يرحمها ويغفر ليها.. خلات لينا هاد الأمانة، وحنا راه في مقام
«!باه إن شاء الله
لكن عيني المختار لم تكونا تبحثان عن الأمانة في عيني موحى
المنكسرتين. بمجرد أن شبع المعزون، وبدأت الحركة تهدأ والعيون
تثقل، نهض العم بخفة لا تتناسب مع ضخامة جثته. مسح يديه
بمنشفة، وتسلل بهدوء مريب نحو الغرفة الداخلية.. غرفة "خالتي
.ميّانة" التي أسلمت فيها الروح صباحاً
دفعني فضولي الطفولي، وحرصي الفطري على صديقي، لأنسلّ
خلفه بخطوات لا تسمع. استرقت النظر من شق الباب الخشبي
.الموارب، وكتمت أنفاسي

.

كانت الكاميرا هناك ترصد أبشع أنواع الخيانة. لم يقف العم المختار ليدعو لها بالرحمة والمغفرة، ولم يذرف دمعة على فراش أخيه وزوجته. بل توجه مباشرة نحو "الصندوق الخشبي" القديم القابع في الزاوية، والذي كانت الأم تخفي فيه أوراقها، وبعض الأثواب البالية، وذكرياتها الشحيحة.
بأصابع غليظة وقلب ميت، بدأ يقلب محتويات الصندوق بنهم. يرفع ثوباً، وينفض غطاءً، يبحث عن صرة نقود مخبأة، أو دملج ذهبي ربما نسيته الأيام، أو حتى وثيقة ملكية لتلك الجدران المتقشرة. كان يلهث بخفوت، وعيناه تلمعان في شبه العتمة ببريق الجشع الذي يعمي البصيرة.
وفجأة، بينما كنت أراقب هذا المشهد المقزز من شق الباب، شعرت بيدٍ باردة، صغيرة ومرتجفة، تمسك بكتفي من الخلف. التفتتُ مفزوعاً.. كان موحى!
كان يقف خلفي تماماً، يرى ما أراه. يرى عمه الذي من المفترض أن يكون سنده، وهو ينبش في أسمال أمه بحثاً عن دراهم معدودة. لم ينطق موحى بحرف. لكنني رأيت يده اليمنى تنزل ببطء لتستقر في جيب معطفه الواسع، وتقبض بشدة مرعبة على تلك العلبة البلاستيكية الزرقاء.. "علبة الفازلين". قبض عليها بقوة حتى كادت مفاصل أصابعه الصغيرة أن تخترق الجلد، وكأنه يدرك في تلك اللحظة القاسية، أن معركته الحقيقية للدفاع عن إرثه الوحيد والأخير.. قد بدأت للتو.
أغلق العم "المختار" غطاء الصندوق الخشبي بقوة، فتصاعدت منه سحابة من الغبار العتيق ورائحة النفتالين التي أزكمت أنوفنا. زفر بحسرة خائبة بعد أن تأكد أن أرملة أخيه رحلت خاوية الوفاض، لم تترك ذهباً يُباع ولا فضة تُرهن.
وعندما استدار بكتفيه العريضين نحو الباب، تسمرت عيناه علينا. تراجعنا أنا وموحى خطوة إلى الوراء. للحظة، ارتبك العم، لكنه سرعان ما استعاد قناع "كبير العائلة".

رسم على وجهه الممتلئ مسحة من الحزن الزائف، واقترب بخطوات ثقيلة جعلت الأرض الاسمنتية تئن تحت قدميه. انحنى قليلاً نحو موحى، ومد يده الخشنة ليمسح على رأسه، قائلاً بنبرة لزجة تقطر وصاية مدعية: «ما تخافش أ ولدي.. الدار داري، وأنت من اليوم راك في رقبتي بحال ولادي. لي خلاها خوك الكبير، يكملها الصغير.»

لكن موحى لم يتجاوب مع تلك اليد. كان جسده النحيل متخشباً كلوح ثلج، وعيناه مصوبتين نحو الأرض، بينما يده اليمنى غائصة في جيب معطفه الواسع، تقبض بشراسة على العلبة الزرقاء.

لم تفُت تلك الحركة المتشنجة نظرات العم المختار الثعلبية. انتبه إلى انتفاخ جيب معطف موحى، وإلى طريقة دفاعه المستميتة عن شيء مخبأ هناك. تبدلت نبرة صوته، وسقط القناع الحنون ليحل محله فضول الجشع اللئيم.

«شنو مخبي تما أ موحى؟» سأله وعيناه تلمعان في شبه العتمة.

تراجع موحى خطوة أخرى حتى التصق ظهره بالجدار الإسمنتي البارد. هز رأسه نفياً، وازدادت قبضته إحكاماً على جيبه. لكن العم المختار لم يكن رجلاً يتقبل الرفض من طفل يتيم. تقدم نحوه، وبحركة خاطفة، قاسية، لا تخلو من عنف مبطن، أمسك بمعصم موحى الصغير.

حاول موحى المقاومة، لكن ماذا تفعل أصابع عصفور واهن أمام مخالب طائر كاسر؟ انتزع العم المختار يد موحى من الجيب، وأدخل أصابعه الغليظة ليسحب "الغنيمة".

ظهرت تحت ضوء الغرفة الخافت علبة الفازلين البلاستيكية الزرقاء.

قلبها العم في يده الكبيرة باستهزاء. رجّها قليلاً، فصدرت عن الدراهم المعدنية في قعرها رنة مكتومة. ابتسم المختار ابتسامة صفراء كشفت عن أسنانه، وبحركة سريعة نزع غطاءها. التمعت الدراهم القليلة.. دراهم الخردة والأسلاك النحاسية، وبجوارها تماماً، مطوية بعناية فائقة، كانت ترقد "نصف التذكرة" الورقية. لم يفهم العم قيمة تلك التذكرة، ولم يهتم بما تعنيه. كل ما رآه هو المال. «إيوا تبارك الله.. طاحت الصمعة، علقو الحجام!» قالها متهكماً، ثم أضاف وهو يدس العلبة بكاملها في جيب جلبابه الداخلي، وكأنه يصادر لعبة من طفل مشاغب: «هاد البركة غنخليها عندي أ ولدي. راه الكفن والطلبة والصدقة ديال اليوم قسمو لي ظهري. ملي تكبر، نعطيك حقك!»

في تلك اللحظة الدقيقة، لم يصرخ موحى. لم يبكِ. لم يتوسل. سمعتُ، وأنا أقف بجانبه، صوت انكسار مرعب لا تدركه الآذان. رأيت كيف انطفأت اللمعة الأخيرة في عينيه. لقد صادر العم للتو ليس مجرد دراهم.. بل صادر عرقه، كرامته، والأهم من ذلك: صادر التذكرة التي كانت ترمز لحلمه الوحيد في الهروب، صادر تذكاره الأخير من أمه.

استدار العم المختار وغادر الغرفة ليعود إلى وليمة الكسكس، تاركاً إيانا في العتمة.

نظرتُ إلى يد موحى التي كانت تقبض على العلبة قبل لحظات؛ كانت ممدودة في الفراغ، ترتجف بضعف، وأصابعها نصف مضمومة كأنها ما زالت تتشبث بوهم تبخر. أدركت حينها، وأنا أبتلع غصة مرة كالعلقم، أن هذا البيت لم يعد بيتاً لموحى، وأن رائحة الأم قد شُيعت مرتين في يوم واحد: مرة في المقبرة، ومرة في جيب العم.

كان هذا هو الوداع الصامت لطفولتنا. ومن تلك الزاوية المظلمة، وتحت وطأة ذلك الجشع العائلي البغيض، وُلدت في رأس موحى فكرة الخروج النهائي.. إلى الشارع الواسع، حيث قد يكون برد الأرصفة أرحم بكثير من دفء الأقارب الكاذب.

الفصل العاشر

صقيع الجدران الموحشة..

بمجرد أن مالت شمس ذلك اليوم الشتوي الكئيب نحو المغيب، بدأت المسرحية الاجتماعية تسدل ستائرها الثقيلة.
انفضّ المعزون تباعاً. لفت نساء الجيران أجسادهن الممتلئة بجلابيبهن الصوفية، وتسللن خارجات بخطوات متسارعة هرباً من لسعة البرد المسائي، تاركات خلفهن فوضى عارمة: قصاعاً ملطخة بدسم المرق، عظاماً متناثرة في حواف الأطباق، وبقعاً من الشاي الحلو على الحصائر البلاستيكية المتهالكة.
مع إغلاق الباب الحديدي الخارجي خلف آخر معزٍّ، تبدد ذلك الدفء البشري المزيف، وانسحب ضجيج الأصوات المفتعلة، ليرتدّ على الغرف صمتٌ جنائزي مرعب، أثقل من صمت المقابر ذاتها. تبخرت رائحة البخور والكسكس، لتزحف من جديد من شقوق الجدران تلك الرطوبة الفاسية الباردة، حاملة معها رائحة اليتم الخالصة.
في زاوية الغرفة ذاتها، بقي موحى متقوقعاً على نفسه كجنين لفظته الحياة قبل الأوان.
كانت عيناه مسمرتين على الفراغ، بينما يده اليمنى غائصة في جيب معطفه الواسع. كان يحرك أصابعه بخفة داخل الجيب الفارغ، يقبض على الهواء.. يبحث عن زوايا العلبة البلاستيكية الزرقاء التي كانت تمنحه الوهم بالأمان، تماماً كما يبحث المبتور عن طرفه المفقود ويشعر بألمه الخفي. لقد أحدث غياب تلك العلبة في فخذه، حيث كانت تستقر دائماً، برودة لا تطاق، برودة أشد قسوة من زمهرير دجنبر.

وفي صدر الغرفة، حدث التحول المرعب.
بمجرد أن خلا البيت من الغرباء، أسقط العم "المختار" قناع الأخ المكلوم. خلع جلبابه الرمادي الفاخر وطواه بعناية فائقة فوق وسادة نظيفة كي لا يتجعد. جلس متربعاً براحة تامة، يخلل أسنانه بعود ثقاب، ويتجشأ بصوت مسموع، دون أن يعير أي انتباه للجسد النحيل المنكمش في الزاوية المظلمة.
بدأت عيناه الثعلبيتان تجولان في الغرفة، لم تعودا تبحثان عن دراهم مخبأة هذه المرة، بل كانتا تقيّمان المكان بعقلية المالك الجديد. نظر إلى الفراش الصوفي الذي كانت ترقد عليه أمه صباحاً، ثم التفت نحو موحى، وبصوت

خشن خالٍ من أي عاطفة، شق سكون الغرفة قائلاً: «نوض أ موحى.. نوض جمع هاد الروينة لي خلو العيالات. وما تنساش طوي هاد الفراش وخرجو للسطح يضربو البرد.. ريحة المرض باقة خانقة الدار!»
انتفضتُ في مكاني، وأنا الذي بقيت متسمراً بجوار الباب أراقب المشهد بقلب يعتصر. كانت نبرة العم لا تحمل طلباً، بل أمراً عسكرياً جافاً يمحو بجرة واحدة كل تاريخ موحى في هذا البيت. لم يكن يطلب منه تنظيف الغرفة، بل كان يطلب منه، وبكل قسوة، أن يمحو الأثر الأخير لأمه، أن يرمي فراشها المبلل بعرق نزعها الأخير إلى صقيع السطح، وكأنها لم تكن يوماً سيدة هذا المكان.
رفع موحى رأسه ببطء. التقت عيناه الفارغتان بعيني عمه القاسيتين. وفي تلك النظرة الصامتة والمشحونة، تجسدت "صدمة ما بعد العزاء" كاملة: أدرك موحى أنه لم يفقد أمه وتذكرته فحسب، بل فقد حقه في الحزن، وفقد سقف بيته.. لقد تحول في رمشة عين من ابن شرعي لهذا الطين، إلى مجرد خادم صغير غير مرغوب فيه، يعيش تحت رحمة عمٍّ جشع في انتظار أن يطرده.

تردد صدى أمر العم "المختار" الجاف في فضاء الغرفة الكئيبة، واصطدم بالجدران المتقشرة ليعود إلينا كصفعة باردة.
لكن موحى لم يتحرك ليلبي النداء. لم يقل "نعم"، ولم يرفض. في قانونه الداخلي، وفي عالمه الخاص الذي بناه طوبة طوبة ليحتمي به من فوضى الخارج، كان ما يحدث الآن يفوق قدرة دماغه المنهك على المعالجة. لقد انهار روتينه اليومي تماماً؛ غابت أمه، اختفت رائحتها وسط روائح الطعام الغريبة والكافور، والأفظع من ذلك.. سُلبت منه "علبة الفازلين"، مرساته الوحيدة التي كانت أصابعه تلجأ إليها لتهدئة عواصفه الداخلية.
بدل أن يقف، بدأ جسد موحى النحيل، المتقوقع في الزاوية، يهتز ببطء.
كان يتأرجح للأمام والخلف، للأمام والخلف، بإيقاع رتيب ومتواصل كالرقاص المكسور لساعة قديمة. رفع يديه ببطء شديد، ووضع كفيه الصغيرتين بقوة على أذنيه، ضاغطاً عليهما وكأنه يحاول يائساً إغلاق كل منافذ العالم الخارجي، لمنع ضجيج أوامر عمه القاسية من اختراق رأسه الذي يكاد ينفجر. كانت أصابعه ترتجف بعنف، تبحث في الفراغ عن ملمس البلاستيك الأزرق البارد لعلبة الفازلين لتعيد له توازنه المفقود، لكن الجيب كان فارغاً، والانهيار الحسي (Meltdown) كان قد بدأ يبتلعه بصمت.
توقفت حركة يد العم المختار وهو يخلل أسنانه. عقد حاجبيه الكثيفين، ونظر إلى ذلك الجسد المهتز في الزاوية باشمئزاز وعدم فهم. بالنسبة لرجل فظ مثله، لم يكن تأرجح موحى وإغلاق أذنيه سوى نوع من الغباء أو العناد المتعمد.
«واش طرشتي ولا تْزَنْزَنْتِي عاوتاني؟» زمجر العم بصوت أجش زاد من حدة اهتزاز موحى. نهض المختار من مجلسه الوثير، وتقدم بخطوات غاضبة جعلت أرضية الغرفة ترتج. انحنى نحو موحى، وبقسوة الجاهل، انتزع يديه الصغيرتين من على أذنيه بقوة، وجذبه من ياقة معطفه الواسع ليوقفه على قدميه.

«تحرك تقعد! ملي نهضر معاك تسمعني! سير هاداك الفراش لوحو للسطح، مابقيتش باغي نشم ريحة الدوايات هنا!»
دفعه بقوة نحو الزاوية حيث يرقد الفراش الصوفي المتهالك. تعثرت خطوات موحى المترنحة، وكاد يسقط لولا أن يداه ارتطمتا بحافة الفراش.
وقفتُ متسمراً عند الباب، أراقب المشهد وأنا أكتم أنفاسي، عاجزاً عن التدخل. رأيت موحى يركع ببطء أمام فراش أمه. لكنه لم يطوه كما أمره العم. لم تكن يداه تبحثان عن طاعة، بل عن أمان أخير.
بواسطة حواسه التي تعمل بطريقة مختلفة عن البشر العاديين، التقط موحى بقايا رائحة أمه الملتصقة بنسيج الصوف الخشن. انحنى بجذعه النحيل، وألصق خده مباشرة بذلك الفراش البارد. أغمض عينيه بقوة، ودفن أنفه في الصوف، يتنفس بعمق شديد، متقطع، يحاول أن يشفط ما تبقى من رائحتها، عرقها، وأنفاسها المريضة، ليخزنها في صدره قبل أن يطردها هذا الغريب إلى صقيع السطح.
كان يتشبث بالصوف بأصابعه المجروحة كمن يتشبث بطوق نجاة في بحر هائج، وعاد جسده للاهتزاز الطفيف وهو ساجد فوق الفراش، يصدر همهمة خافتة جداً، كأنين جرو صغير فقد أمه للتو.
في تلك اللحظة السينمائية البطيئة، حيث انصهر طفل متوحد مع فراش أمه الميتة هرباً من قسوة العالم، تقدمت قدما العم المختار الثقيلتين في حذائه الجلدي. وقف فوق رأس موحى تماماً، كظل وحش يبتلع الضوء القليل المتبقي في الغرفة.
وقف العم "المختار" فوق رأس موحى كظل كابوس ثقيل يبتلع ما تبقى من ضوء الغرفة الشحيح. لم تكن في قلبه ذرة من رحمة ليفهم أن ذلك العناق اليائس للفراش البارد لم يكن عناداً، بل كان محاولة طفل متوحد للتشبث بآخر ذرة أمان حسي في عالم ينهار.
لم يمهله طويلاً. زفر العم بغضب، واندفعت من فمه رائحة تبغ رخيص اختلطت برائحة دسم اللحم، لتلوث هواء الغرفة. وبحركة

فظة ومفاجئة، انحنى وأمسك بطرف الفراش الصوفي الذي كان موحى يدفن وجهه فيه.
«قلت ليك نوض!» زمجر بصوت غليظ، وجذب الفراش بقوة غاشمة.
انزلق الصوف الخشن من تحت أصابع موحى المرتجفة كأنه يُسلخ من جلده. احتكت خيوط الفراش بخد الطفل مخلّفة احمراراً لاسعاً، وسقط موحى على الأرضية الإسمنتية العارية بضربة مكتومة. ارتطم كتفه النحيل بالأرض، لكنه لم يصرخ. بل ظل متسمراً في مكانه، وعيناه تتابعان في رعب صامت كيف يلف العم فراش أمه، يطويه بقسوة لا تليق بقدسية الموت، ثم يرفعه تحت إبطه الضخم، متجهاً به نحو الباب الخارجي ليرميه في صقيع السطح، ليمحو أثرها إلى الأبد.

في تلك اللحظة، تبددت رائحة "خالتي ميانة" تماماً. سحب الفراش معه آخر خيط يربط موحى بهذا المكان.
عاد العم ليرمقه بنظرة أخيرة من الأعلى، نظرة سيد لتابع حقير، ثم أدار ظهره وتوجه نحو الغرفة الدافئة ليغلق الباب على نفسه، تاركاً إيانا في بهو البيت البارد، حيث كانت الريح الشتوية تتسرب من شقوق النافذة لتلسع العظام.
كنت أقف متجمداً عند عتبة الباب، أراقب صديقي. توقعت أن يعود موحى للاهتزاز، أو أن يغطي أذنيه ويبدأ بالهمهمة كما يفعل دائماً حين ينهار عالمه. لكن ما حدث كان أشد رعباً من أي انهيار.
توقف موحى عن الحركة تماماً. سكن جسده سكوناً غير طبيعي، وكأن الدماء تجمدت في عروقه. نهض ببطء شديد، حركة بحركة، مثل آلة مكسورة تعيد تشغيل نفسها في وضع البقاء. مسح الغبار عن ركبتيه بآلية مرعبة. لم ينظر إلى الباب المغلق الذي يقبع خلفه عمه. لم ينظر إلى مكان الفراش الفارغ. بل أنزل نظره إلى جيبه الواسع.. الجيب الذي كان يحتضن "علبة الفازلين" وتذكرته الزرقاء. دس يده فيه للمرة الأخيرة، وتركه فارغاً.

التفت إليّ. التقت عيناه بعينيّ في شبه العتمة. لم تكن هناك دموع، ولا ذلك التوهان المعتاد في نظراته المشتتة. كانت عيناه تحملان صفاءً جليدياً، قاطعاً ومخيفاً.. صفاء طفل أدرك للتو أن قواعد عالمه القديم قد مُسحت بالكامل، وأن البقاء تحت هذا السقف يعني الموت البطيء اختناقاً.
بالنسبة لطفلٍ متوحد، يمثل كسر "الروتين" والخروج إلى الشارع المجهول رعباً لا يمكن تخيله، فوضى حسية قد تقتله. لكن في تلك الليلة، كان جحيم المجهول في أزقة رباط الخير، أرحم بكثير من "النظام" الذي فرضه هذا العم الغاصب.
بدون أن ينطق بكلمة واحدة، رفع موحى ياقة معطفه الكبير ليحتمي من البرد، واستدار نحو الباب الحديدي الخارجي. رفعه قليلاً لكي لا يُصدر صريراً يفضح هروبه، وانسل منه كشبح صغير، تاركاً خلفه بيتاً لم يعد بيته، وتاريخاً دُفن في المقبرة وفي جيب عمه.
وقفت وحيداً في العتمة، أسمع صوت خطوات حذائه البلاستيكي الممزق تبتعد في الزقاق الموحل، تبتلعها ظلمة الشتاء القاسية. وفي قلبي الصغير، المعتصر بالألم، أدركت أن طفولتنا قد انتهت هنا، وأن غداً، حين تشرق شمس الصقيع، لن نكون مجرد بائعي بطاقات تعبئة... بل سنكون أطفال شوارع، في مواجهة عالم لا يرحم الضعفاء.

الفصل الحادي عشر

التذكرة الكاملة..

جررتُ موحى من يده المتصلبة، ولم تكن يده في تلك الليلة مجرد طرف بشري، بل كانت كقطعة خشب يابسة، خشنة وباردة، نُسيت في العراء لتواجه منفرداً زمهرير الصقيع الذي يضرب أزقة "رباط الخير". كنت أشدّه خلفي بكل ما أوتيت من قوة طفلٍ أنهكه الجوعٍ والركض والخوف، بينما كانت السماء تبصق رذاذاً خفيفاً وحاداً يغرز في لحمنا كإبر دقيقة. لم يبدِ موحى أي مقاومة تذكر، ولم يطرح أي سؤال. كان ينزلق خلفي في وحل الزقاق اللزج كظلّ باهت فقد صاحبه، أو كجسد أُفرغ من روحه تماماً بعد أن سُلبت منه علبته الزرقاء. كانت حركته آلية، خالية من أي إرادة، وكأن محرك الحياة في داخله قد انطفأ وتوقف عن النبض. في تلك اللحظات القاسية، لم يكن في رأسي الصغير، الذي كادت أفكاره تتجمد من شدة البرد، سوى فكرة واحدة تومض كمنارة يائسة في بحر من الظلام الدامس: أن أصل به إلى باب بيتنا. أن أدفعه بأي ثمن إلى حضن أمي. هناك، حيث الدفء، ورائحة شاي الصباح المعطر بالنعناع وحبق الجبل، وحيث الملاذ الوحيد والأخير الذي أعرفه في هذا العالم القاسي الذي لا يرحم الضعفاء.

بعد خطوات ثقيلة وموحشة بدت كأنها دهر كامل من العذاب، توقفنا أخيراً. طرقتُ الباب الحديدي المتهالك لبيتنا بدقات ضعيفة لكنها مثقلة بالرجاء. شقّ صرير المزلاج الحديدي الصدئ صمت الليل الثقيل، وانفرج الباب ببطء شديد لتظهر أمي. كانت تقف على العتبة، تلتف بإزارها الصوفي الخشن اتقاءً لتيار الهواء البارد الذي اندفع كوحش جائع من الزقاق. وخلفها، في عمق

الغرفة الضيقة، كان ينبعث ضوء مصباح أصفر شاحب، يلقي بظلاله المتراقصة والمخيفة على الجدران الرطبة. ومع ذلك الضوء، اندفعت نحونا فجأة حرارة ثقيلة، كثيفة، وخانقة، قادمة من "فورنو" الغاز الصغير المشتعل في زاوية الغرفة. كانت تلك الحرارة بالنسبة لي في تلك اللحظة هي رائحة الجنة وطوق النجاة، لكنني لم أكن أعلم، بجهل طفولتي، أنها ستكون الجحيم المطلق بالنسبة لرفيقي.

نظرت أمي، بعينين نصف مغمضتين غادرهما النعاس للتو، إلى وجهي المبلل بالدموع والوحل والمطر. تفحصت ارتجافي للحظة، ثم نقلت بصرها المذعور ببطء إلى وجه موحى. كان وجهه شاحباً كالموتى، خالياً من أي تعبير بشري، وشفتيه تميلان إلى زرقة مرعبة من شدة البرد والصدمة. شهقت أمي شهقة عميقة قطعت نياط القلب، شهقة ملأت صدرها بالرعب. ضربت صدرها بكفها المليئة بشقوق العمل في حركة عفوية، حركة مشبعة بتلك الشفقة الفطرية العنيفة التي تسكن قلوب الأمهات عندما يرين طفلاً منكسراً وعلى حافة الهلاك. صرخت بصوت متهدج ومذعور يمزق سكون الليل: «بسم الله عليك اوليدي.. ما يكون عندك باس!»

لم تكتفِ أمي بالكلمات والدعوات. اندفعت نحوه كعاصفة من العاطفة العمياء، وجذبته من يدي بقوة لم أعهدها فيها، ساحبة إياه إلى داخل الغرفة. وبحركة أمومية بحتة، لا تفهم سوى لغة الاحتواء، طوقت جسده النحيل والمتخشب بذراعيها في عناق حار، ضيق، وباكٍ. كانت رائحة أمي بالنسبة لي هي رائحة الأمان المطلق؛ ذلك المزيج المألوف والدافئ من "الصابون البلدي"، والتوابل، وعرق الكدح اليومي الشريف. لكنني، في غمرة الحدث وسذاجة سني، نسيت تماماً من يكون موحى. نسيتُ أنني للتو أدخلتُ طفلاً متوحداً—سُلب منه قبل ساعات فقط روتينه الصارم، ورائحة أمه المتوفاة، و"علبته الزرقاء" التي كانت مرساته

الوحيدة في هذا الوجود المربك—إلى أتون متفجر من الفوضى الحسية.
اصطدم دماغ موحى في كسر من الثانية بجدار صلب من المحفزات التي لا طاقة لجهازه العصبي بها: الحرارة الخانقة واللاذعة المنبعثة من "الفورنو" والتي لسعت جلده المتجمد كالنار، الضوء الأصفر الشاحب الذي اخترق عينيه المعتادتين على عتمة الزقاق كشفرات حادة، نحيب أمي العالي ودعواتها المتلاحقة التي ثقبت طبلة أذنه كإبر دقيقة لا ترحم، وعناقها الضيق والمحكم الذي قيد حركته وحبس أنفاسه المذعورة. كل هذا كان بالنسبة لي "حباً" ورعاية، لكنه كان بالنسبة لموحى جحيماً حسياً لا يُطاق. كان عالمه الداخلي ينفجر ويتشظى إلى ملايين القطع الزجاجية الحادة داخل جمجمته.
بدأ جسده يرتجف بين ذراعيها، ليس من البرد هذه المرة، بل بعنف هستيري لا يمكن السيطرة عليه. أصدر من أعماق حنجرته صوتاً مكتوماً، غريباً ومفزعاً، كحشرجة طائر صغير عالق في مصيدة حديدية يحاول تحرير جناحه المكسور عبثاً. وبحركة فجائية وعنيفة، استجمع فيها طاقة دفاعية لم أكن أعرف يوماً أنه يمتلكها، دفع أمي بعيداً بكلتا يديه حتى كادت تفقد توازنها وتسقط على الأرض.

رفع يديه فوراً ليغطي أذنيه بقوة مرعبة، وكأنه يحاول منع رأسه من الانفجار أو حجب أصوات العالم كله عن التسلل إلى مسامه. استدار كالسهم، عائداً نحو الباب الذي كان لا يزال مواراباً، ليقذف بنفسه مجدداً في أحضان الزقاق المظلم والصقيع. هناك، في العراء الموحش، حيث لا روائح ثقيلة تخنقه، ولا أذرع بشرية تقيده، ولا شفقة تكسر كبرياء عزلته.. وجد الهدوء الذي سُلب منه بوحشية.

بقيتُ متسمراً في مكاني على العتبة، ممزقاً بين عالمين يتنافران بقوة. التفتُّ لأنظر إلى حرارة الغرفة المغرية التي تتراقص على جدرانها الظلال، وإلى وجه أمي الدافئ والمصدوم وهي تنظر إلى يديها الفارغتين غير مستوعبة لما حدث. ثم أدرت رأسي نحو الباب المفتوح، حيث ابتلعت العتمة السائلة والبرد القارس جسد صديقي. أدركتُ في تلك اللحظة القاطعة كحد السيف، أن تركه وحيداً الليلة في الخارج يعني موته تجمداً بلا أدنى شك. لم أكن أخطط للتشرد الأبدي عندما جلبته معي إلى بيتنا، لكنني كنت أعرف، بيقين يتجاوز عمري ومداركي، أن هذه الليلة بالذات تتطلب مني أن أكون درعه الواقي، ليس من العالم الخارجي فقط، بل حتى من حبسة الجدران وشفقة البشر التي تقتل أحياناً دون قصد.

«غادي نرجع أ مي.. غير نلقاه!» صرختُ بها في وجهها بصوت يحمل تصميماً يائساً لا رجعة فيه، وأفلتُّ من يدها التي امتدت بسرعة لتحاول منعي، راكضاً بكل ما أوتيت من طاقة متبقية نحو الشارع المظلم.

ركضت أبحث في الزوايا المعتمة، أتعثر في البرك الطينية، وتنزلق قدماي على الحجارة الملساء، وقلبي يدق كطبول حرب مجنونة في صدري. بحثت في كل زقاق، خلف كل باب خشبي، حتى وجدته أخيراً. كان متكوراً على نفسه في وضعية الجنين، يسند ظهره إلى جدار "فران" تقليدي مهجور في آخر ذلك الزقاق المنسي من العالم. تقدمت نحوه بحذر شديد، كمن يقترب من طائر بري جريح. لم أحاول معانقته هذه المرة؛ لقد تعلمت الدرس القاسي للتو، ودفعنا ثمنه غالياً من روعنا. جلستُ بجانبه على الأرض المتجمدة، على مسافة قريبة تكفي ليلمس كتفي كتفه في الظلام، لكن في صمت مطبق احترمت فيه مساحته.

كان المكان بارداً يرتعد له البدن وتصطك له الأسنان، لكنه كان يعبق برائحة الرماد القديم، والطين الجاف، وبقايا الحطب

المحترق من أزمنة غابرة. كانت رائحة ترابية، محايدة، وأصيلة، لا تزعج الحواس ولا تقتحم الخصوصية. جلست أرقبه بطرف عيني في العتمة التي بدأت عيناي تعتادان عليها. لاحظتُ أن صدره توقف عن الصعود والنزول بجنون، وأن تشنجٍ كتفيهِ بدأ يرتخي ببطء، وأن أنفاسه المتقطعة بدأت تنتظم شيئاً فشيئاً لتتلاءم مع إيقاع الليل الساكن. كانت هذه الرائحة الترابية العتيقة، وهذا الظلام الهادئ الذي يلفنا كبطانية خفية، بمثابة ضماد سحري لحواسه المجروحة والمستنزفة.

في تلك الليلة القارسة، ونحن نرتجف معاً تحت سقف الفران المهجور المتهالك، وتلتصق أكتافنا بحثاً عن بقايا دفء بشري خافت لا يتطلب عناقاً ولا كلمات مواساة، أدركتُ حقيقة شكلت بقية حياتنا، حقيقةٍ أكبر من سني الصغير ومداركي المحدودة: موحى ليس مجنوناً يحتاج لشفقة البكاء، ولا لعناق الأمهات الحار الذى يخنق أكثر مما يدفئ. بل هو كائن دقيق وشفاف كقطعة كريستال نادرة، يحتاج إلى عالم هادئ وملموس، عالم يصنعه هو بيديه ليعوض به كل الكلمات التي فقدها وكل الروابط التي قُطعت. وفي وسط رائحة ذلك الرماد العتيق، ونحن نراقب أنفاسنا تتصاعد كالدخان الأبيض في الهواء المتجمد لـ "رباط الخير"، عاهدتُ نفسي، بعهد غليظ لا يُنقص ولا يُخان، ألا أتركه يواجه ضجيج هذا العالم وقسوته وحده أبداً.

انتهت الفصول الاحدى عشر...
لكن الحافلة لم تتوقف بعد.
فما زال في جيب موحى
نصف تذكرةٍ أخرى،
ونصف وجعٍ
لم يُروَ بعد.
— يتبع في الجزء الثاني إن شاء اللّٰه.